الطيب صياد

صاحب رواية العثمانية

متاهة قرطبة

غواية الزمن والكلمات

المثقف للنشر والتوزيع
اسم العمل: متاهة قرطبة
اسم المؤلف: الطيب صياد
تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشندوقة
رقم الإيداع: 2018 / السداسي الأول
الترقيم الدولي (ISBN) : 978-9947-79-136-3
الناشر / دار المثقف للنشر والتوزيع
المدير العام / سميرة منصوري
هاتف / فاكس: 86 73 49 0675 / 75 65 85 033
صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com

الطبعة الأولى 1439 هـ - 2018 م

إهداء

إلى من يعطي الكتاب وقته الحيّ

حين تكمل الصفحة الأخيرة من هذه الرواية

أريدك أن تكتب أول صفحة من الحياة

مقدمة

- لكن ماذا كتبتَ لي في الرسالة أمس؟

- لا تقلقي سأخبرك .. عفوًا! عن أيَ رسالة تتحدثين؟

- انظُرْ هاتفك لتعلم بماذا راسلتَني ..

- ها هو أمامي .. آخر رسالة بيننا .. طيب؛ انظري.. آخر رسالة حين طلبتِ مني إحضار الخبز والكرز .. هل نسيتِ؟

- طيب .. انهضْ لتشرب حليبك وقهوتك حتى تحدثني عن سر تلك الرسالة الغريبة التي أُرسلتْ من هاتفك .. هو رقم هاتفك .. لا أظن أني مخطئة في رقم هاتف زوجي الغبي!

- «مهما حدث لي حافظي عليها، سيُهدَم المسجد إذا ضاعت»!

1
ثرثرة

«من عشق فكتم فمات فهو شهيد»

حديث شريف

- .. مجرد قصيدة غزلية ، أنت تقلد الشعراء القدامى في كتابة الأشعار الغزلية وتنسج على منوالهم ، لم تأت بجديد على كل حال ، رصفت مجموعة هائلة من الكلمات على موسيقى واحدة ونهاية واحدة لتخدعنا بأن هذا فن يستحق الإعجاب والتقدير؟ دعني أخبرك يا صديقي .. الحالة التي نعيشها اليوم لا تليق بالشِّعْر ، وهذا الكلام ليس كلامي أنا بل الجميع يتفق على هذه النقطة .. الجميع صدقني .. لن يعجب أحد بما تكتبه من القصائد ولن يدعوك أحد من الوزراء ليعطيك صندوقا من المال ، حتى الجمعيات الثقافية لن تعقد لك جلسة تكريم ولا تنتظرْ حتى شهادة شرفية ..

- أخشى أنك متسرع نوعًا ما في أحكامك ، هل الرأي الذي تطرحه عليَّ الآن هو نتاج بحث ومقارنة أم أنك فقط تردد ما يكتبه أصحاب الأسماء المستعارة على فيسبوك؟ أنا

أكتب الشِّعْر لأني أومن به فَنًّا قائما بذاته ، ولن يموت الشعر في هذا العصر كما لم يمت في أي وقت مضى ... الأفضل -يا عزيزي- أن لا تكون إقصائيا في نقد الفنون.

وبتذمر بادٍ على ملامح الناقد الشاب المراهق «عزيز» ذي العينين الضيقتين والنظارات الطبية الغليظة والتي يتصور من خلالها أنه إنشتاين الأدب الحديث ؛ كان رَدُّهُ بِخُيَلاء :

- هذا هو الواقع ، سيموت اسمك في تفاعيل الشِّعر ، وستقضي على نفسك كما قضى الفراهيدي على اللغة.

ضحك صاحبه الشاعر ضحكة باردة تخفي وراءها قهقهة عميقة ، ثم قال :

- ليتني أقضي على نفسي كما فعل الفراهيدي ... لكن هل قرأتَ للفراهيدي ؟ ماذا قرأت له أو ماذا قرأتَ عنه؟ هيا أخبرني وسأعترف بك ناقدا حداثيًّا وصاحبَ مستقبل زاهر.

كان تَلَفُّتُ عزيز مصحوبا بانقباض في ملامح وجهه ، انكمش جبينه وتظاهر بأنه لم يسمع التحدي ، وأنه يركز في قراءة شيء مهم على شاشة هاتفه النقال الذي يملأ يده ، ثم حاول أن يشتت الموضوع لأنه سيقع في ورطة لو أجاب بصدق ، لذا قرر أن يتجاوز النقاش بالنظر يمينا وشمالا حيث مجموعة من ركاب الحافلة يتمايلون ويتذمرون ويستمع بعضهم إلى بعض وينظر بعضهم في وجوه بعض أو يتلمح بعضهم في هواتف الآخرين ، كذلك كان يفعل عزيز

ليتهرب من السؤال المُحْرِج الذي طرحَهُ الشاعر الرَّجْعِيُّ ...

ثم بدا له أن يخادع صاحبه بفكرة أخرى ، فهمس قريبا من أذنه :

- صديقي ، هل يمكنك أن تغازل تلك النسوة في الحافلة؟ هل ستقع واحدة منهن في غرامك لو أنشأتَ لها بعض الأبيات كما كان يفعل المخزومي مع نساء قريش؟

قال ذلك مع ضحكة تشبه انفجارَ آلة منزلية من صنع محلي حتى التفتَ إليهِ غالب الركاب ، وبصوتٍ أقلَّ خُفوتًا رَدَّ الشاعرُ بِبَعض التَّهَكُّم من تلك الضحكة التي اندلعتْ قبل قليل وبشيء من المتعة :

- اخترْ أي واحدة منهن وأعدك أني سأغازلها وستقع في حُبِّي من البيت الأول.

- آه .. وفي البيت الثاني ربما ستطلب منك خاتم الخطبة؟ وستطالبك بتسريع موعد الزواج في البيت الثالث ، وهكذا... لن تكمل قصيدتك حتى تُنجبا طفلا ، وأنت -من دون شك- ستطعمها قصيدة عمودية على بحر الطويل ، أما الطفل فسيكون كتلة من الأوزان الشعرية مع بعض الخضر والفواكه ...

كان خروج عزيز في هذه الساعة الحامية من مبنى الجامعة قد صادف إغلاق أصحاب المحلات ، حيث وجد فرصة رائعة جدا لمُجادلة صديقه الذي يزعم لنفسه أنه شاعر وهو صاحب

المكتبة الواقعة قريبا من هذا المبنى الجديد في مدينة بوسعادة القديمة، هو يعرف صاحبه جيدا وأنه لا يحب الجدال الصبياني والذي لا يصل إلى أي نتيجة في الغالب، ولكنه يحب استفزازه ليرى ردة فعلِهِ واحمرارَ وجهه وأنفِه واحمرارِ أُذنيه كذلك واحمرارَ كلماتِه في بعض الأحيان أيضا، وأَمَلًا في استفادة بعض المعلومات منه لكونه يحب المطالعة كثيرا ويقرأ يوميا عشرات الصفحات خلال جلوسه في مكتبته، يعلم عزيز أن هناك فرقا كبيرا جدا بينه وبين صاحبه الذي يكبُرُه ببضع سنوات، فهو يتفوق عليه كذلك في المستوى الثقافي عبر اعتماده الكبير على القراءة، بينما عزيز يفضل -كغالب مَن هم في سِنِّه- تصفُّحَ مواقع التواصل الاجتماعي وقراءة المقتطفات ومشاهدة الفيديوهات والمواد المرئية، أما صاحب المكتبة فيتمتع بعقلية أصحاب الجيل القديم، ويفضل الكتب والأوراق والأقلام على الملامس الناعمة لشاشات الهواتف البراقة، كان دوما يستمع إلى كلماته التي يرددها كثيرا عند نهاية أو بداية كل جدال بينهما، إذ يقول له:

- فرق عظيم بين أن تبني شخصيتك على ثقافة الكتاب وبين أن تبنيَها على ثقافة الإعلام، الكتاب يُهَيِّئُ لك منهجية صلبة في عملية التفكير والتحليل، يقدم لك دروسا متكاملة في الفهم والنقاش فضلا عن تلك اللذة الباهرة في تقليب الأوراق والتمتع برائحتها القديمة..

- ليس بالضرورة أن تكون أوراقها قديمة ، هناك الآلاف من الكتب الجديدة ذات الملمس الناعم مثل شاشة هاتفي يا أستاذ ، مجلات ملونة لذيذة ، ألا تطالعها ؟

هكذا كان يرد صاحب النظارات الملساء من حينٍ ما إلى آخر .. يتلذذ بالاستفزاز !

لكن حين يتذكر عزيز هذا الكلام يُحِسُّ أنه فعلا قد وقع في ورطة مخيفة ، فهو يدرك بوضوح ماذا يقصد صاحبه الأكبر منه سنا والأكثر تجربة حين يحدثه عن ثقافة القطيع التي يقول إن الإعلام نجح أيما نجاح في فرضها على الناس ، يقول صاحب المكتبة وهو شيخ هَرِمٌ في الثلاثينات من عُمُرِهِ ، لذلك الشاب المراهق الذي يضع نفسه على كَفِّ عفريت :

- ليس هناك أي مشكلة في الاستفادة من هذه التكنولوجيا ، فكلنا نملك حساباتٍ على مَنَصَّاتِ التواصل وننشر صورَنا ورحلاتِنا وبعضَ تَفاهاتنا كذلك ، ونستمتع بتفاعل الآخَرين معنا ، فبعض السذاجة حقٌّ مشروع لكل إنسان ، غير أن بناء الشخصية لا يكون نتيجة هذه التصرفات الفوضوية أبدا ، لأن هذه التصرفات لا تعطي لك في النهاية سوى مزيد من الفوضى في القرارات ، ولن تحقق وراءها أيَّ مَجْدٍ يُذكر.

يقارن عزيز نفسه دائما مع صاحبه ولكنه لا يعترف في قرارة نفسه بأنه أفضل منه ، وأن القيمة المعنوية التي وصل

إليها لم تكن بالطريقة التي يحلو لعزيز أن يسلكها ، فهذا أمر يؤرقه كثيرا ..

هناك مجموعة من الناس يتحملون ضغط هذه الساعة المُلتَهِبة أواخرَ الربيع البوسعادي ، يَسْتَقِلُّون الحافلة ويعلمون جيدا أن آخرين يفكرون مثلَهم ويفعلون الأمر ذاته ، إنها مُتعة الاكتظاظ لدى الناس تظهر في كثير من الأحيان .. اكتظاظهم في الأزقة الضيقة وازدحامهم في مَمَرَّات الأسواق الشعبية التي تَعُجُّ بمختلِف الروائح كرائحة الثوم والعطور النِّسْويَّة غير الأصلية وروائح البَهارات والتوابل والأعشاب الطِّبِّيَّة ورائحة القلوب الحارة التي تأتي للسوق بحثا عن مواعيدَ غراميةٍ أو لمصادفة حبيب مجهول ، في حافلات النقل العمومي المُهْتَرِئة والقديمة جِدًّا يحدث الأمر نفسه ، الناس يركبون تلك الحافلات وكأنهم في لَهفة للقاء بعضِهم بعضًا ، ولكن رغم كل هذا الازدحام المزعج إلا أن الدخول في نقاش عقيم وثرثرة ممتدَّةٍ مع شاب مراهق يُعَدُّ أكثرَ إزعاجًا في نظر صديقه خاصة وأن أغلب الرُّكَّاب يستمعون إليهما بكثير من السُّخرية ، وهو الأمر الذي يوقع صاحبَ عزيز دائما في حرج مديد ، لا يكاد ينقضي إلا بنزوله من الحافلة والتوجه بسرعة نحو البيت والتخلص من أفكار المراهقين التعيسة ..

- يبدو أن الكلام لم يَرُقْ لك؟ يجب أن تتقبل النقد يا

أستاذ.

- لا .. إنما الجوع هو الذي جعلني أبدو متضايقا، هل تأتي معي لنتغدَّى سَويَّةً في منزلي؟ أظنُّها فكرةً جيدة ..

- شكرا شكرا .. ليَكن ذلك في المرة القادمة، وليكن غداءً مبرمجا حتى نحوِّله إلى جلسة ثقافية يا صديق .. شكرا لكرمك.

هذا الاقتراح الذي قدمه عزيز جعل صاحبه يُحْبَط مجددا، كان يظن أن فكرة الغداء ستقضي على فكرة الثقافة، الشاب المراهق الذي يزخر ذهنه بالمقتطفات والمقولات المنسوبة زورًا وبهتانا إلى ابن خلدون وجلال الدين الرومي وتشومسكي وهتلر وزلاتان إبراهيموفيتش؛ لا يفتأ يقتنص منها شواهدَ في كل مناسبة لإثراء الجلسات بأفكاره .. حتى جلسة الغداء القادم ربما لن تسلم منه ..

لذا كان على عزيز ألا يُخْفِيَ ضَحْكَتَه الواسعة بعد أن اِلْتَمَسَ موافقة شبه صريحة من صاحبه الذي التزم بابتسامة مكدَّرةٍ وثابتةٍ حتى نَزَلَ من الحافلة العجوز التي بدأت تصدر صريرا يشبه في لحظاتٍ ما احتكاكَ عجلات القطار الحديدية على السكة .. العَرَق المتصبب من جبين الشاعر والغبار المتصاعد في كبرياء إلى مَناخر الرُّكَّاب وتلك الأصوات المحتدمة بين صرير الحافلة وهمهمات الراكبين في غَتِّ الحرارة ووطأة شمس الربيع الذي لا يأنَفُ أن يُضاهِيَ صيفَ المنطقة؛ كل

ذلك لم يمنع عزيز من التفكير فعليًّا في عقد جلسة للجدال العقيم مع صاحبه المسكين، ربما حماسة المراهقين تلغي كل الحدود والحواجز ... أخيرا غاب الشاعر عن الأنظار، وكأنما تلاشى بين ذرَّات الغبار من دون رجعة ...

- تبًّا .. قال عزيز في نفسه ... لم أخبره أن الأستاذة قد سألتْني عنه!

وحتى لا ينسى ذلك؛ أرسل له الوصية في رسالة عبر هاتفه.

فضَّل عزيز بعد ذلك أن يراقب بقية الركاب من خلال نظاراته الغليظة التي تتيح له قليلا من الاستتار، كانت هناك امرأتان لم تتوقفا عن الحديث رغم الإرهاق الذي يبدو تحت أعيُنِهما، كانتا تلبسان مِلحفتين واسعتين كعادة نساء بوسعادة، لكنَّ المِلحفتين لم تُخفيا عن الأنظار مَفاتنهما، أما إحداهما فيظهر من وجهها العينان الواسعتان والأنف المُفَلْطَح وشَفَتُها العليا التي لم تتوقف عن الحركة والإغراء، وأما صاحبتها فلم يظهر من وجهها إلا عين واحدة هي اليمنى، كانت تلك عادة قديمة جدا بين البوسعاديات .. ولأن العين هي أغلى ما تملكه المرأة فإنها توحي بذلك أنها مُخلصة لحبيبها ولن تُبدله حتى لو غيَّبه التراب ..

عين واحدة ..

حبيب واحد ..

الأغلى لا يشبه إلا الأغلى ..

أما لـون الملحفـة فهـو أبيض ناصع ، ربما هـي ذات زوج .. فلو كانت زرقاء لكانت عجوزا قد هجرت المَلَذّات وطلقت الدنيا ، وإن كانت برتقالية اللون فهي فتاة عزباء ، هكذا خلَّد نصر الدين دينيه هذه العادة المتلاشية في إحدى لوحاته الجميلة ، كان كصاحبة البوعوينة .. مُخْلِصًا لبوسعادة ، ولذا أعطاها أغلى ما يملك .. حياتَه .. وزَهَدَ في الشهرة تحت أضواء عاصمة الجن والملائكة.

كانت في الحافلة أيضا فتاة مُخْتَمِرةٌ ذاتُ سروالٍ فَضفاض إلى حدٍّ ما ، عيناها الواسعتان أيضا وطولُ قامتها وامتلاءُ جسدها وحقيبة ظهرها الصغيرة مع مجموعة من الأوراق تقبض عليها بيديها المرتجفتين ؛ جعل عزيز يتوقع أنها طالبة جامعية مجتهدة ، أنفُها الحادُّ يوحي بأنها الأولى في الدفعة القادمة ، لكنها مع ذلك لم تَحْظَ بالانتباه اللائق الذي حظِيت به الملتحِفتان ، يبدو أن الجاذبية الأنثوية غير مرتبطة بالملموس قدر ارتباطها بالمستور الذي يتغيَّى الناس البحث عنه والكشف عن سره ... وربما لأمر ما أو لآخرَ يتشهى الرجال امرأة دون غيرها ، قد يكون ذلك حظًّا مقسوما ، وقد يكون ذا علاقة بالتجاذب النفسي .. والتفتَ بسرعة وراءه ليجادل صاحبه في الأمر ، لكنه تذكر أنه قد نزل منذ لحظات.

في أقلَّ من نصف دقيقة ؛ ركز صاحب النظارات الطبية

ذو النفس الملتهبة في عيون إحدى المرأتين الملتحِفتين والتي كانت ترمُقه بنظرها أيضا ، ثم تكرمت عليه بابتسامة لم يفهم منها أي شيء قبل أن تُزيح بصرها إلى صاحبتها وتستأنف الحديث بصوت أقل من الهينمة الآنفة..

أهو الحب من النظرة الأولى؟

كل ما دار في ذهن عزيز هو أنها تهزأ من سُمك نظاراته أو أنها تعرفه من قبل ، لم يوغل بفكره أبعد من ذلك ، فهو كذلك قد داهمه الجوع ويريد أن يصل في أقرب وقت للبيت حتى يتناول الغداء مع والدته..

الدقائق التي يقضيها عزيز في حافلات النقل تجعله يتمنى لو أن الناس لا يزالون يستعملون الخيل والبغال والحمير ليركبوها ، فهي على الأقل تريح الخاطر حسب ما يتخيله حين يشاهد الوثائقيات التاريخية..

تَفَقَّدَ هاتفه ، هل يكون صاحبه قد اطلع على الرسالة التي لا يظن أنها مُهِمَّة إلى حد بعيد ، يبدو أنه لم يقرأها بعدُ.. كل ذلك لا يُهِمُّ أيضا ما دام أنه فقط يحاول أن يقضي على الملل الذي ينتابه في الطريق إلى البيت ، مع ذلك يعلم أن صديقه يُولي اهتماما كبيرا بمثل هذه اللقاءات الأكاديمية فلا شك أنه سيتوجه بعد أيام للقاء الدكتورة والثرثرة في ذلك الموضوع ، كان عزيز قد جلس معهما مرتين أو ثلاثا وكان معهما أشخاص آخرون كذلك يعشقون الثرثرة في

الأمر ذاته، كأنهم خرجوا خِلسة من الزمن الغابر والدهر البائد، يتجادلون في مواضيع لا تمت للواقع بصلة ولا ترتبط بالحداثة لا من قريب ولا بعيد، بل يفضل عزيز أن يتحول هؤلاء الأشخاص بمن فيهم صديقه الشاعر وأستاذته الجميلة إلى ممثلين لأن ذلك يجعلهم ينجزون أدوارا ممتازة في الدراما التاريخية ..

يمتلئ رأس هذا الشاب المراهق بالأفكار والاقتراحات الساخرة ليتسنى له عدمُ الاكتراث بأي امرأة تراقبه في الحافلة ولا بأي شخص يحمل كيسا من الخضار تنبعث منه رائحة البصل والثوم، أيام قليلة تفصلهم عن شهر رمضان وتصبح تلك الروائح شهية بما فيه الكفاية.

«الأمر بائس جدا ..»

يفكر عزيز بتذمر لا يُخفيه .. فالامتحانات ستكون في رمضان، وليس هناك أي حل سوى الاستيقاظ صباحا والتوجه إلى الجامعة حيث غالب سكان بوسعادة قابعون في منازلهم ..

سيكون ذلك مُحْبِطًا جدا ..

عند نزوله من الحافلة وجد هاتفه يرن، إنه اتصال من صديقه الشاعر:

- ألو .. أهلا أستاذ .. هل من غداء جيد مثلا؟ هل اطلعت

على الرسالة؟

الصوت من الطرف الآخر لم يكن واضحا، لذا استأنف عزيز قائلا:

- ألو، هل سمعتني؟ يبدو أن هناك انقطاعا في شبكة الهاتف، طيب سأُنهِي المكالمة ثم أعيد الاتصال .. لحظة ..

حاول عزيز إعادة الاتصال بصديقه لكنه وجد هاتفه مغلقا، كرر الاتصال أكثر من مرة ليتأكد أن الإرسال ضعيف .. كثيرًا ما يحدث الأمر .. الانقطاعات تحدث دوما في شبكات الهاتف وشبكات الأنترنت، وتذكر خلال ذلك تصريح المسؤول قبل عامين أو ثلاثة «سنصدر الأنترنت إلى الخارج»!

لم يشغل بالَ عزيز أيُّ أمر، سيتصل بصاحبه لاحقا بعد أن يتناول غداءه، أو سيزوره في المساء بعد العصر أو قبيل المغرب حين يبرد الحال .. ليس متأكدا ..

2
غواية الطريق

«كان يتبتل الليالي ذوات العدد»

حديث شريف

بعد أن سمع آخِرَ قَرْعَ لنعالهم تحسَّسَ نفسه ليتأكد أنه بقي وحيدا أو تخيل أنه لوحده، إذ ليس هناك أي صوت يسمعه ما عدا نعيقَ الغربان الضاربةِ في كبد السماء، وما عدا أزيزَ بعض الحشرات التي تقترب وتبتعد كأنها تحاول كسر الهدوء المرعب في المكان، ولِحَدِّ اللحظة لم يفهم أين هو؟

الأمر الوحيد الذي ينفِّس عنه بعضَ الشيء هو أنه لم يبتعد كثيرا عن منزله، فالوقت الذي قطعه على متن السيارة التي كان مُحتَجَزًا فيها لم يتجاوز الساعة إلا ببضع دقائق، كانت سيارة مريحة جدا وقوية على السير في الجزء الأخير من الطريق والذي لم يكن مُعَبَّدًا، لم يتلقَّ من طرف هؤلاء أي إهانة أو شتيمة لفظية ولا ألحقوا به أي ضرر جسدي، كل ما فعلوه به أنهم عصبوا عينيه بعصبة تؤلمه قليلا، حين كان قريبًا من بيته لم يلمح أي شخص يمكنه أن يمثل تهديدا له،

الحقيقة أن الجو كان حارًّا جدا في تلك الساعة وغالب الناس في منازلهم ، لذا قد صُدم حين قيَّده اثنان منهم وعَصَبَا عينيه بسرعة حتى لا يتذكر أي واحد من هذه المجموعة المخيفة ، أراد أن يتفوه ببضع كلمات ، أن يصرخ أن يتساءل أو يسأل : من أنتم ؟

من أمر بالقبض عليَّ ؟

ما هو الجُرم الذي ارتكبتُهُ ؟

من الشخص الذي ظلمتُهُ لينتقم مني بهذه الطريقة المرعبة ؟

الجيد أنني جربتُ موقفا كهذا من قبلُ ، إنما كان بطريقة نظامية محترمة ..

جيد جدا !

لكن هذه الاستفهامات تحولت إلى صدى يتردد في جوفه وصدره ، لأن تلك العصابة كانت قد كممت فمه بشدة ، وفي بضع لحظات حملوه إلى سيارتهم الفارهة وانطلقوا بها كلمح بالبصر ، وخلال هذه الرحلة المزعجة لم ينبس هؤلاء المهذبون بأي كلمة إلا الأوامر التي كان يُلقيها سيدهم على ما يبدو لتوجيه السائق في الطريق ..

راح يستعيد تفاصيل ما حدث له بدقة ، لكن لم يكن هناك أي شيء مثير ، لم يجد أي كلمات دلالية في حوارهم المقتضب ولا شمَّ بأنفه أي رائحة غريبة كرائحة خمر أو

رائحة مقززة على سبيل المثال أو رائحة توجه فكري معين إذ بعض التيارات تتميز بروائح معروفة ، كل الأفكار المرعبة كانت تجول حول رأسه كأزيز تلك الحشرات في قائم الظهيرة هذا ..

هل سيقتلونني؟

سيذبحونني ربما؟

هل سيُقَطعون جُثَّتي بعد ذلك ويُلْقُون بها إلى الغربان المنتشرة في جو السماء؟

ولكن هل سيقتلونني بدم بارد دون محاكمة؟

ألن يطلبوا مني أي معلومة مهمة وبعد ذلك يضعون رصاصة في رأسي أو داخل صدري الذي كان مجمع الأسرار وملتقى الأشواق؟

لماذا يحتجزونني؟

ما هو المميز في رجل تافه مثلي حتى يُحتجز على متن سيارة فارهة تنقله مسافة ستين أو سبعين دقيقة ودون توضيح أي سبب؟

لا أعتقد أن هناك عقاراتٍ وأملاكًا بحوزتي وفيها مُنازعات بين الناس ، ليس في ملكيتي أي متر مربع من الأرض حتى يطمع فيه أي طامع ، طيب .. لا أمتلك أي شبر من التراب ، وإذا فرَّت روحي من جسدي فلن يجدوا لي موضعًا لإكرامي بالدفن ، وربما لن يكون لي شرف الغراب

الذي دفنه أخوه بعدما تعاركا في السماء وقتله ، هل ستدفنني الغربان أم تتقاسم جثتي ؟

تلك الغربان الناعقة لم تقتلني حتى تدفنني ..

ذلك مجد لا يبدو أنني سأبلغه في هذه البادية الجرداء !

العصبة التي على عينيه لا زالت مُحْكمة بعناية ، أما يداه فقد أُطلِق سراحهما لكنهم قيدوا رجليه حتى لا يهرب ، رفع يديه إلى ناحية رأسه حتى يتخلص منها لكنه لم يجد أي طرف ليَفُكَّها منه ، ولمَّا حاول إدخال أنامله بين العصبة وبين جلده أحسَّ بألم كبير جدا ، كأنها مصنوعة من حديد .. فكَّر بمزيد من الخوف أن فمه مكمم بعصبة متينة أيضا ، هذا الأمر جعل دقات قلبه تتسارع بوتيرةٍ أكبرَ .. لكنه هدَّأ من رَوْعِهِ إلى حدٍّ ما ، ووضع نفسه في هذا الأمر الواقع ..

أنا مُعَرَّضٌ للموت في أي لحظة وبأي طريقة محتملة ، لذا سأحاول قضاء ما تبقى من حياتي بكل ما أستطيع من إرادة ، أنا الآن لا أبصر ولا أتكلم لكني أشم وأسمع وأحس ..

ثلاثة تغلب اثنتين دون ريب ...

لكن لمَ احتجزوني ؟

ليس َلي أموال ضخمة يتابعونني لأجلها ، معيشتي بالكفاف ، ولا أظن أني موضع حسد بسبب ذلك ، فاللصوص الأذكياء يدركون جيدا تفاصيل ضحاياهم فأنا لستُ سوى لحم جمل غَثٍّ على رأس جبل وَعْر ، لكن ما

أدراني لعلهم لصوص أغبياء عنيدون؟ سيندمون أشد الندم حين يكتشفون أني لستُ الضحية الذي يريدون منه أموالا طائلة أو عقارات شاسعة، كما أنهم سيندمون مرة ثانية حين يعلمون أنه لا تربطني أي علاقة بأي شخص من كبار أرباب العمل وأصحاب رؤوس الأموال الضخمة، أنا متأكد أن الذي أعطاهم معلوماتي قد خدعهم أو أنهم لم يتلقوا تلك المعلومات بصورة صحيحة، قد يكون هناك تشابه بين اسمي وملامحي وبين تلك الضحية التي يريدون سلب أموالها أو ابتزازها .. هذا احتمال قوي جدا، غير أنه يبقى احتمالا .. أنا متأكد من ذلك .. لكن تبقى الاحتمالات في باب المظنونات بالفعل حتى تتلاشى جميعها ويبقى الواحد الذي لا يمكن غيره، إذن عليَّ أن أسبُرَ جميع الاحتمالات المتبقية .. يبدو أن دراستي لم تذهب سدى ولم تضع هَمَلًا، من كان يتوقع أني سأستفيد من معارفي الدراسية في لحظة احتجاز على هذا المكان المرتفع؟

لا يستطيعون فعل أي شيء، لو أخْلَوا سبيلي للحديث معهم سيجدون أني الشخص الخطأ وأنه لا علاقة لي بالمال وصفقات الأعمال والعقارات ..

تكاد البادية المحيطة به أن تُطْبِق على خياله، كأنه ليس هناك أي شيء في الوجود سوى ذلك النعيق المتناثر في الفضاء من أفواه الغربان، يعبثون بذرات الهواء وكأنهم يرفضون ذلك

الصمت المُصْفِق، يرسلون نعيقًا كمِثْل صَيْحات المُعَذَّبين في السجون، خُيِّل إلى ذلك المحتجز في الجَبل أن تلك الصيحات هي صورة آهاته وأنينه الذي لا يستطيع ابتعاثَه من صدره بسبب التكميم، هؤلاء القاطنون في السماء يتمثَّلون صياح هذا المحتجز المعزول عن العالم، يحاولون بقدر ما أوتوا من حرية أن يعوضوه بعضِ ما يجب فعله ..

أليس من حقي كَسَجينٍ في هذا الكهف الجبلي أو كمخطوف من أُسرته أن أَصيحً؟ ألا يحق لي مقابلة قوة الفعل بقوة الصوت ما دام أني عاجز عن الرد كما يجب؟

ثم انتبه لأمر مرعب كاد يُتلف أعصابَه من قوة الشد ..

ما بال تلك الغربان اللعينة تنعق في ناحية السماء هذه؟

ولِتسارُع نبض قلبه أراد أن يهدِّئ من الرعب الذي اجتاح عروقه وكأنه سُمٌّ لا يفصله عن شَهقة الفَناء إلا أن يصل إلى سويداء القلب، ضغط بقوة بظهره على جدار الكهف ملتمسا بعضِ الأمان، إذْ طالما كان الكهف أمانا للخائفين من بطش الظَّلَمة، تراجعت الوساوس في ذهنه وهو يحاول أن يبعدها ولكنها تقترب منه وكأن أحد الغربان انقضَّ من السماء ليستقرَّ فوق رأسه ..

تلك الطيور المشؤومة ماذا تفعل هنا؟

لم يكن هذا سؤالا بقدر ما كان جوابا صادما لم يستطع أن يصوغه بلسان قلبه كما لم يستطع أن يستسيغه ..

وبكل ذلك الخوف المسيطر على روحه تشكلت أمام عينيه المغمضتين صور الجثث المتناثرة قريبا منه ..

لا تحوم الغِربان إلا فوق الجُثَثِ القَديمة ..

من غير المُجدي أن يُفكر في أمر آخَرَ عدا هذا المصير المحتوم.

يا لسخرية الحياة .. أهو عدلٌ أن يموت رجل مُسالم هذه المِيتة الفظيعة؟ حتى مجرمو الحرب والأسرى يَحظَوْن بشيء من الاحترام، وبعد ذلك يُعدَمون بطريقة يشاهدها جميع الناس في وسائل الإعلام، أو على الأقل يسمعون بها ويتناقلونها في مجالسهم، أما أنا فمن دون حرب سأُعدَمُ ولن يشعر بي أي أحد سوى تلك الطيور السوداء التي ستفرح بخبر موتي وكأننا أمضينا سنواتٍ متطاولةً في عَدَاء شَرِس ..

أيتها الغربان اللعينة لا تفرحي بموتي فإن روحي ستعلو إلى السماء إذ تهوِي أرواحكم القاتمة إلى الأرض لتمزِّق جثتي ..

حين تختار روحي أن تطرق باب السماء فإن أرواحكم ستتمرغ في رَدْغة الخبال ..

لا يغُرَّنَّكم ذلك الشموخ الذي أنتم فيه، فإنكم تطلبون ما في الحضيض وتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

بعض النسمات المتفرقة التي تصيبه في عُنقه وجبينه وأطراف يديه ترد له شيئا من الحياة، ويستريح بها قليلا من تلك المخاوف وكأن عقله يبتغي بعض الهدوء حتى يعاود

التفكير مجددا ، التفكير أقصر طريق نحو الجنون .. أو ربما .. ليتسنى له أن يبعث دفعة جديدة من التشاؤم ، إذا لم يعد هؤلاء الذين احتجزوه فإن عذاب النفس سيزداد ..

وخروج الروح سيكون أطول من أي عذاب آخر ..

3

كفكفة

«فإنهن المؤنسات الغاليات»

حديث شريف

الزمن هنا لا معنى له ..

وأي معنى للزمن حين تفتقد الحركة؟

وأي معنى للزمن حين تُجتثُّ منا ملكية القوة؟

بحقك يا الله من يرعى دموع الطفل الصغير إذا بكى واشتاق إلى حضن والده؟

لا شك أن خزيمة يسأل أُمَّهُ عني ويطلب منها أن تخرجه أمام البيت حتى يلاقيني كالعادة، آه، آه .. حتى الزفير يضطرب بين صدري وثغري بسبب هذا التكميم، لا أدري كيف سيصبر خزيمة وأنا بعيد عن البيت؟ وما ستفعل أمه وهي لا تدري عني أي شيء، سلبوا مني هاتفي كما سلبوا هُتافي، وسلَّموا صيحاتي إلى تلك الغربان المتربصة بي ريبَ المَنون، كل ما في الأمر أن التفكير في أسرتي وذلك الصبي الصغير سيزيد في شقائي ويقذف بي إلى انهيار عصبي حاد

يرادفه الجنون أو الموت ..

يا لخيبتك أيها التعيس وأنت لا تدري لمَ احتجزوك وأبعدوك عن أهلك وبيتك؟ ونَفَوْكَ إلى هذهَ البادية حيث لا مُؤْنِسَ من بشر ولا جن، ربما لا تأتي قوافل الجن إلا في الليل الدامس حين ينطفئ وَهَجُ الشمس في بِرْكة الأفق، وتلتزم الطيور اللعينة الصمتَ لتأويَ إلى مخابئها في نواحي الأرض الموحشة، ألم تكن العجائز تحدثنا عن الغول قبيحة المنظر والتي تخطف الناس إذا أزف الليل؟ تخيفهم وتعكر مزاجهم وتفسد عقولهم .. تبا لك، وأي تعكير أعظم من احتجاز متعسِّفٍ على رأس هذا الجبل؟

لم يكن خزيمة يخاف إذا قَصَصْنا عليه قَصَصَ الغول، بل كان يضحك مدركا أن حكاياتنا مجرد مزحات نستجلب بها النعاس حتى ينام ..

أفأبكي لما ضحك له خزيمة؟

أي عار يلاحق ذاتي إذا عجزت عن الثبات أمام هذه الوساوس؟

لم يمر وقت طويل منذ أَلْقَوْني في هذا الكهف، لا أظن أن أحدا اتصل بي سوى زوجتي، وربما هي أيضا لم تتصل لأنني كنتُ أحيانا أتأخر عن موعد الغداء لأسباب أخرى، ربما ستقول في نفسها: إنه يتناول الغداء مع أصدقائه في المطعم أو في بيت أحدهم، لكنها ربما تكون قد اتصلت بي مرات

عديدة ، وقد تجد الهاتف مغلقا لأن مكانا قَفْرًا كهذا يستبعد أن تتوفر فيه تغطية شبكة الهاتف ، الحكومة لا تهتم بسكان البادية .. هم كذلك لا يهتمون بها مثل عشيقين يستمتعان بالهَجر إذ طال بهما النأي ، أتكون زوجتي قد اتصلت وردَّ عليها واحد من تلك العصابة الحقيرة؟

آه ، آه ..

ماذا يمكن أن يقولوا لها؟

هل أخبروها عني؟

وهل كشفوا عن حقيقتهم أو طلبوا منها فِدية مقابل تحرير رقبتي؟

في الغالب ؛ لا أظن أن هذا الأمر كله مجرد مزحة على هذه الشاكلة ، ليس هناك ما يضمن لي ما سيحدث لها إذا كانوا قد تكلموا معها.. ستفقد وعيها ، ستنهار لا شك في ذلك ..

«أولاد الحرام» هؤلاء أتوقع منهم كل شيء ، قطاع الطرق ..

لهم كل الحق في ممارسة جرائمهم ما دام أننا في قطعة أرض تتنازعها عدة عصابات ، فلا جرم أن الجميع سيلعب دور العصابة ويستولي على الأموال عن طريق النهب ، ويتحكم في ما استطاع وبما وصلت إليه يده من رقاب الناس وممتلكاتهم وأرزاقهم ، ليس هناك أي فرق بين تلك

العصابات سوى في حجم النفوذ وكمية الاختلاسات، أنا في قبضة عصابة صغيرة استولت على هاتفي وجعلتني تحت رحمتها، بينما يظل الباقي في قبضة عصابة عجوز تعتبر الحدود الوهمية جدرانا ممتدة لهذا السجن العظيم.

الهواء نقيٌّ هنا لم تفسده رائحة الجثث على ما يبدو، قد تكون أشلاء القتلى طيبة كطيب دماء المظلومين.

آهٍ، كم من الدموع تلزم ولدي خزيمة كي ينسى والده ويكبر ويعتمد على نفسه ويكون سندا لوالدته المسكينة؟

هل سيكون من السهل مثلا أن يعثر على جثتي أو قبري إذا نلت شرف الدفن على أيدي الخاطفين؟

أم أنهم سيبعثون بجسدي إلى البيت حتى تقام لي مراسيم دفن طبيعية وأفرح حينها إذ يُنقل نعشي بين أهلي وأحبابي ويُصلَّى عليَّ ويُدعى لي ويُرشُّ قبري بماء طيب كطِيب يَدَيْ خُزيمة؟

أنينٌ متلاحقٌ لا تُطفئه تلك الدموع التي بدأت تَسيل من عينيه، يقال إن دموِع الحزن ساخنة سخونة تلك الآهات المُرْتَجَّة في صدره الخَرِب، تكاد ضلوعه تنشطر من شدة الحزن والأنين، حينَ بكى علم أنه ضعيف جدا باستذكار ولده وزوجته ..

أيكون الوَهَن غالبا حتى يقهر قلوب الرجال؟

من لك يا خزيمة؟

من لقلبك الملائكي حتى يحتمل الفاجعة؟

بل كيف لقلبي أنا أن يتحمل البعد عنك؟

لستُ الآن أي شيء، لا أمتلك أي قوة ولا أتدرع بأي اصطبار حين أتخيل صورة خزيمة ووالدته ..

بحقك يا الله إلا منحتني بعض القوة حتى لا أنهار ..

بحقك يا الله إلا وهبتني قلبا فإنه لا قلب لي ..

بحقك يا الله إلا رزقتني عقلا فإن عقلي يكاد يتلف ..

بحقك يا الله إلا نزعت عني هذا الأسى فإن لي طفلا يقهرني فراقه ..

بحقك يا الله! الله .. الله ..

ثم غفا من شدة الإعياء والحزن، كان أحدهم قد أتى له بقليل من خبز الكسرة الذي أُعِدَّ من الشعير، ومعه قِدح لبن من الحجم المتوسط تفوح منه رائحة الشيح المنعشة، ونزع عن فمه تلك العصبة وقال بصوت ليس مرتفعا: الطعام ..

لم ينتبه المحتجز على رأس الجبل، فالإنهاك قد وصل به غاية الذهول، أما الذي أتى له بالطعام فقد انصرف تاركا وراءه صرير الحجارة الجبلية تحت أقدامه، لعل قسوة الحجر تؤنس من في الكهف ..

4
غواية الزمن

"فاخترتُ اللبن، قال: قد اخترتَ الفطرة"

حديث شريف

أيُّ ساعة هذه؟
ألا يفترض أنني في بيتي أو على رأس عملي؟
أي زمن هذا الذي أقضيه هنا؟
متى جئتُ إلى هذا المكان؟
وهل لهذا الحلم من نهاية؟

بأجفان مُغْمَضة قد شُلَّت تحت عصبة شديدة الإحكام وتَنهّداتٍ متثاقلة استيقظ المحتجز من غفوة كأنها إغماء، ولا يدري وهو يتساءل عن الزمن أكان في لحظة سُكْر أم السُّكر يتغلغل فيه بعدما طَفِقَ يتذكر نفسه، حرك شفاهه ليدرك أنه طليق اللسان بعد أن كان يدفن كلماتِه في بيداء صدره الأجرد، لم يجد بدا من أن يتنهد طويلا وكأنَّ سجينًا أُطلق سراحُهُ بعد أمد بعيد.

لسانٌ يضطرُّه للكتابة ..

موسيقى تضطرُّه للشِّعر ..
حُبٌّ يضطرُّه ليكون متوهِّجًا ..
فيحترق البَهْرَجُ ..

كأنَّ الناس في سوق الحياة يشتري بعضُهُمْ ما رغب عنه الأولُ، ويسرق بعضهم سلعة الآخَر، وفيها غالٍ وزهيدٌ، وزاهدٌ وتَبوعٍ، وتابعٌ ومتفرِّد، وفردٌ وذو حبيب، ومحبٌّ وقالٍ، وقليلٌ من يشكر نعمة الخالق، وخالق النعمة صبورٌ!

آه ما أعظم الكلمة وما أشهى الترنُّمَ بالأحاديث وما أشقى من لا يتكلم، سأقول كل شيء .. سأبثُّ كل ما في صدري من تباريح الزمن، لن أدع أمرا إلا وأفشيتُه إلى هذه الصحراء القاحلة، لعلها تسعفني كما لا يسعف البشر، وتسمعني إذ صَمُّوا آذانهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، سأحدثك أيتها الصحراء الحانية عليَّ فكم ممن لا حانيَ عليه، سأكلمك أيها الغار الذي آواني فكم ممن لا كافيَ له ولا مُؤْوي.

لم يكن بعدُ قد لَفَظَ أي كلمة وكأنه لا يصدق أنه سيمارس حقه في الكلام بعد زمن لا يدري مقداره أطويل هو أم قصير، بدا عليه حماس يَلفح جسده المتطاول والمُنْحَنيَ في جِلسة غير مريحة إلى حد ما، شِفاهُهُ ترتجف وهي تحت وَطأة الحروف المتزاحمة التي تريد الانبعاث تماما كمثل المُصْطَفِّين في طوابير المعابر؛ تغلي قلوبهم على الجمر وهم ينتظِرون لحظة النطق بأسمائهم أو أرقامهم ليجتازوا بكل ما أُوتوا

من لهفة على صراط الأوطان بُغية الظفر بِعِيشة قد تشبه ما يمارسه البشر من حق في الحياة ..

اشتدت وطأة الحروف على لسانه وشفتيه حتى ارتعدت فرائصه لها ..

يا لِثِقْلِ الكلمات على القلب والجسد، لم أستطع معها صبرا.

بحقك يا الله من لهؤلاء المسحوقين في سجون الظلمة؟

هؤلاء الذين سُلِبوا حق الكلام.

هؤلاء الذين أُطبقت شفاههم على بعضها حتى لا يمطروا أعداءهم مطرَ السَّوء، أيكون سهلا عليهم أن يُمْضُوا الأيامَ والليالِيَ ذواتِ العدد وهم يتحملون وطأة الكلام على قلوبهم دون أن تصرخ أفواههم لتُزيح بعض الهم الذي يَفْتِك بالأرواح والأجساد؟

وما لي أنا وما لهؤلاء المسحوقين، هذا القلب الذي لم يقدر على صبر ساعة لا يحق له أن يتذكر آهات السجناء، من غير العدل أن يتنزل خيالُ أشباحهم على ذاكرتي، لم يَمْضِ نهار واحد على احتجازي في هذا الجبل حتى أحاكيَ أنينهَم وأوجاعهم ..

غير أني لا أشعر بالزمن وما أدري أقليل أم كثير مضى عليَّ في هذا الغار الموحش..

واحد اثنان ثلاثة ..

تتلاشى الأرقام بين عينيَّ وتكاد لا تعني لي أي شيء.
ساعة واحدة ..
لحظة واحدة ..
ليلة واحدة ..

غير مُجْدٍ أن ألاحق الزمن وهو الذي تريَّثَ بين يدي واتكأ على جانب الغار يلمح ما أنطق به، أو يَعُدُّ نبضاتِ قلبي كأنه يريد أن يسمعِ مني شيئا فينقَضُّ على الأحرف يُلْبِسُها لَبوسَ العَجْز والهرَم، يريد أن يُشعل كلامي شيبًا حتى يبدو كالعجوز الفاني ..

أنا أتحسسك جيدا أيها الزمن المتربص، أقرأ ما تلوح به عيناك من شَرَرٍ لتُصْلِيَ كلماتي نارَ الفناء، لكني سأنازلك لتعرف قَدْرَكَ، وأنازلك لتعلم أنك كسائر الظُّلمة تنزع حلاوة العيش وتمنع الخليقة حق الحياة.

بالله عليك لا تتحرك ولا تضطرب.
ابق هادئا ..
لا تخف!

ألستَ أنت الذي تَمُرُّ بجحافل سنواتك لتقتل براءة الطفولة وتُحيلها خَرَفًا فتجعل الناس يسخر صغيرهم من كبيرهم؟

أيُّ مَجْدٍ فيك وأنت تفسد وجه الحياة ليبقى وجهك غَضًّا طَرِيًّا لا يُنهكه المَوَتانُ ولا يُغيره الحَدَثانُ؟

قل لي بِرَبِّك وها قد جاورتني في هذا الغار اللعين ترمق

إلـي بعينـيْ سِـكِّير لا يرتـوي من خمـرة الموت ؛ مـن أذاع لك أني هنا؟

وكيف تركتَ الخليقة تجري خلف أرزاقها دون أن تُنَغِّصَ لهم أعمالهم أو تفجعهم في أبنائهم وتُسيل دموع أحبابهم؟

أاكتفيتَ منهم واستغنيتَ بي؟

أم أنك اسْتَقَلْتَ من عملك تعبًا وإرهاقا؟

إنـي هنـا أصارحـك بعجزي أمامك فصارحـني بأيامك في الخليقـة أيها يسـعدك وأيهـا يبكيك ويحزنك؟

وأيهـا اسـتوقفك كمـا اسـتوقفك حالـي التعيـس في هـذا المـكان الأعـزل؟

حدثني وأنت تنظر إلي بعَيْنَيْ مُحتالٍ لتُوقِعَ بي وبكلماتي ؛ أأعياك رصـد الخليقة ولم تجد إلا هـذا الغار تتكئ فيه وتُلقي فيـه رَحْلَكَ وتضعُ عنك عصاك كذلك الراعـي الذي يَأوي إلى جبـل بعدمـا يقضـي نهـاره في تتبـع الماشـية وصونِهـا مـن الذئب والسـارق؟

أأنـت بمنزلـة الراعـي أم السـارق الـذي يختلـس كل ثمـين والنـاس تبصـر جيـدا مـا يفعـل ولكنهـا تبقـى علـى الدهشـة الأولى ..

دهشة الخلق الأول ..

دهشة المنح الأول ..

إذ يتشاكل المنح والمنع ..

إذ يتشابه العطاء والسلب ..

أأنت الراعي أم السارق يا مَقيت النظرة؟

حدثني يا فتِيَّ المَلْمَح ويا هَرِم الروح أتنتهز الفرصة من الناس أم هم ينتهزونها منك؟

أأنت من يَمُرُّ عليهم أم هم من يمرون عليك؟

أأنت من يضحك عليهم أم هم الضاحكون؟

أأنت من أفنيتَ الأقوام والملوك أم كانوا قد مَلُّوا سماجتك واستثقلوا هزلك فهجروك إلى الحياة الأخرى؟

أأنت الرابح أم الخاسر حين يرحلون؟

ألك عهد ومواثيق معهم أم النَّاكثُ أنتَ لا عهد لك ولا ميثاق؟

بالله عليك ألا تصومُ عن الهُزْءِ بالناس وقدْ صامَ كلُّ مؤمن وكافر عمَّا يشتهي؟

أمِن جَشَع أنتَ تُردف المَهازل بعضَها ببعض أم مِنْ عَمَهٍ كَعَمَهِ العقربِ تلدغ كل ما تتحسسه قربك؟

كان المحتجز على رأس الجبل قد انفعل وهو يخاطب الشيخ الذي جاوره بالغار وكأنه تلمس شيئا بيده، فمد ذراعه مرة أخرى فإذا بآنية قريبة منه فأمسك بها ليدرك أنها آنية شرب أو كوب فيه شيء تفوح منه رائحة الشيح التي جعلته يَسْتَردُّ الحياة هنيهة ما، إنها الريح نفسها التي كانت تفوح من ضِفاف الوادي إلى ناحية البيوت القديمة في قبر

العَـود[1] ، مـا أشـهى تلـك الرائحة إلى القلب ومـا أحناها على الـروح ..

أيها المُجاور لي في هذا الغار الموحش !

أيها الزمن !

ألا تبعـث لنـا هـؤلاء الأجـداد الذيـن قطنـوا أريافنـا حتـى نتبرك بهـم ؟

والله إنا لهم لَبِالْأشواق..

يا أنيس الغار المُوحش ، بل يا موحش النفس في وحدتها ، ويـا ضـاحـكا علـى الآمـال بالآلام .. لا عليك أيهـا الجار ، إذا قسوتَ علينا فسنكون أكرم منك نفسا وأنبل أخلاقا ، تفضل لتحتسي معنا هذا اللبن المبارك لعله ينزع عنك شيطانك الذي فيك مَسٌّ منه.

اُدْنُ أيهـا الشـيخ دنـا منـك الخير، اُدْنُ وَانـزِعْ عـنِّي عصبـة العـين حتـى أرى وجهـك وأتفـرس فيـك : أفَأَلُ خيرٍ أنت أم تَطَيَّرْنـا بكم ؟

قـد كشـفتُ لـك كل مـا بوسـعي وبُحْتُ لـك بضعفي فهلا أسعفتَني وأنا أترجَّاك ؟

ألا تبتسـم لـي كما ابتسـمتَ لصقر قريشٍ فامتلك الجزيرة الخضـراء بعـد أن كان طريـدا تلاحقـه يـد المَنون بـين الليالـي والأصقاع ؟

---

1 ناحية في بلعروق بمدينة سيدي عامر.

أم أنك ستعبس في وجهي كما عَبَسَ بنو العباس في أبناء عمومتهم؟

ثم سكت لحظةً عن تباريحه، فتنحنح المُجاوِرُ في الكهف وكأنه يتمثل بين عينيه مَصارع العُشَّاق والمُلوك، وانقبضَ صاحبُهُ من ذلك الصوت الذي أوشك أن يعبَثَ بِعقله قبل سَمْعِه، فتحركت العصبة التي وُضِعتْ على عينيه وأحسَّ أنها أَقَلُّ إحكامًا من ذي قَبْلُ، فحرَّكها بيده قليلا ليجد أن عُقدتها قد حُلَّت فِعلا، ثم شَرَعَ يباعدها شيئا فشيئا حتى نزعها ورمى بها جانبا، كان أثرها مؤلما بعض الشيء، والاحمرارُ قد طوَّق جبينه وناحيتَي رأسه، لكنه الآن يُبصر.. إنه يرى نفسه والمكان الذي هو فيه، كان ضوء النهار قد عَشَا ناظِرَيْهِ وألحَقَ بهما بعضَ الأذى، تبَّصر بجواره فإذا كوبُ لَبَنٍ وخبز كسرة كأشهى ما يكون الشراب والطعام.

5
غواية الجبل

«فإن استقرَّ مكانه فسوف تراني»

قرآن

أيُّ خُلوةٍ أنا فيها الآن؟

كأنَّ نسماتِ الهواء هذه ليست غريبةً عليَّ، نسماتٌ مألوفة على دمي دون ريب، وهذا التراب الذي أجلس عليه كأنه يعرف جيدا ريحَ أطرافي وجسدي ..

أي جبل أنت يا صاحبي وأي غار يُؤويني منك؟

لم يكن المحتجز قد سَدَّ رَمَقَهُ حتى هالَهُ صوت الرعد مُزَمْجِرًا في الأفق، كانت أمطار الربيع تحاول أن تسترضي الناس الذين أجدبت أراضيهم في شتاء طويل، غير أن الشيوخ لا يعبأون بها إذْ لا يرجون منها حرثا ولا حصادا، ويفرح بها الصبيان والفتيات والشعراء، فتهطل أمطار الربيع غير عابئة بهؤلاء الشيوخ المكْفَهِرَّة وجوههم من هذا الزمن الآبق، تهطل ندية فيخرج الصبيان والفتيات يسعى بعضهم خلف بعض في ضحك لا ينتهي وعشق لا ينطلي على أحد منهم، ويبقى الشعراء خلف النافذة مترصدين اللفظة واللفظتين من

أفـواه الجـواري لينسُـجوا عليها حكايات العِفَّـة والمُجُون، ولا يدري أحد أن غزل هؤلاء الشعراء لم يكن إلا خلف النافذة الـتي قـد تكتـم تباريحهـم وقـد تُفْشِـيها إذا انكسـرت غِـيرة من هُيام شـاعر بإحدى الجميلات اللواتي يجري وراءهن الشـبان علـى قارعة الطرقات ..

يـا ويـح هـذا المحتجز إذ يرى ودق الرواعـد يداعب التراب علـى مرمـى حجـر منه، فتهتز الأرض وتنبت في صدره كل قول بهيج.

ما له وقد ارتعب حين رأى قِطَع الدخان الأبيض تراقص قمة الجبل وكأنها في موعد غرامي أو ملاحقة عاطفية.

يا للعجب!

أهذا هو التجلي الذي يحصل للجبال؟

أهذا الذي بينها وبين السماء من اتصال؟

وَيْكَأَنَّ هـذا الضباب الذي يغطي رؤوسـها غمامة الوحي التي أَطَّتْ لها ناقة النبي إذ تنزلت الأنعام، ذاك وحي السماء وهـذا وحـي السـمو الذي يكشـف حـين ينقشـع الضباب عن هيبـة تنضاف إلى هيبة الجبل.

أبعـد هـذا الوحـي سـأرى الجبـل خاشـعا متصدعـا، أم قد قسـا قلبـه كمـا قسـت قلـوب النـاس علـى سفوحه المترامية، فجعلـت منه صـروف الدهـر فَظًّـا غليظَ القلـب تَنْفَضُّ مـن حولـه الخليقةُ؟

آه، يا جبل، وطأتك قدماي وأقدام الذين احتجزوني وأنا أحس صخورك وحجارتك تَكْتَظُّ بعضها فوق بعض وكأنها تهرُبُ من سطوة البشر الذين لم تؤخذ بِشرتهم إلا من عجنة صخرك وترابك ورملك ..

فبالله قل لي كيف لِنتَ وقَسَوْا؟

وكيف تهتز من خشية الله ولا يأبه قلب أحدهم من جَبَروت الإلهية ولا يَحِنّ لِرَحَموت الربوبية؟

من أي تراب أُخِذَتْ قسماتُ وجوههم ومن أي شِعاب سُقِيت دماء قلوبهم؟

أَبَخِلتَ أيها الجبل بزَيْنك ومَنحتَهم شَينك؟

أما ترى كيف جاسوا خلالك وهدموا صخورك وحفروك جحوراوأنفاقا؟

أفيرضَى أحدهم أن يُمَسَّ جِلده أو أن يُثقب عظمُه؟!

ألا يعلمون أنهم منك وأنك مادة وجودهم وأصل ذواتهم؟

أم أن الابن مجبول على عقوق والده، وأن الوالد مجبول على العطف على ولده كما تعطف عليَّ أيها الجبل وتحنو على وحشتي في هذا الغار الأعزل؟

أحسَّ المحتجز وكأن تحته حركة واضطرابا فخشي أن تَنْهَدَّ عليه الحجارة فيموت ولا يبث سره لأحد، فنادى بأعلى صوته مستعطفا:

يا صاحبي كفى، والله إنك لجبل يحبنا ونحبه، فبالله عليك إلا هدأتَ وكَفَفْتَ عن غضبك، أما ترى ما أنا فيه من قيود وعُصَب، ألا رحمتني إذ جَفَوْا وظلموا؟

وبالله يا صاحبي ما الذي جعلك تثور وتضطرب، أهو نَزْع الوحي بعد أن انكشف الضباب عنك، ألا تتلو ما أوحيَ عليك لعلي أخشع مِن جَفاءٍ أو أستبشر من يأس أو أهتدي من ضلالة؟

ألا تتلو عليَّ هذه الآيات التي منحتك عظمة إلى عظمتك؟

ألا تبلغني ما أنبأتك به ملائكة السماء؟

أم أنك نُبئتَ فحسبُ ولم تُرْسَلْ؟

إنك لتخشى يا عظيم الخَلْق ما يقوله البشر إذا تلوتَ عليهم ما نُزِّلَ عليك من الآيات، وإنك على حق في ذلك دون ريب، ألم يناصبوا أباهم العداء إذ يصنع الفُلْكَ وكلما مر عليه مَلأٌ منهم سخروا منه حتى سخر منهم الطوفان فعمَّ الأرض وطمَّ الجبال، وما نفع الآبقَ عن طاعة ربه إذ استعصم بالجبل فما عصمه من الماء، وما علم أن الجبل قد أوحي إليه أن يتواضع لنوح وأن يتجبر على ولده، ولو استقبل من أمره ما استدبر لرَضِيَ بذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ وما اغترَّ بقمم الجبال ..

إنك على حق يا صاحبي وقد عبدوا حجارتك وهم

يعلمـون أن سَـيِّدهم مـا قـدر علـى أن يأتـي بذلـك المتوهـج مـن المغـرب فيرمـيَ بـه في بِرْكـة المشـرق، وقـد علموا أن سـيد الحجـارة لم يكـن هـو مـن حطـم الآلهـة الصغـرى ..

فأي سيد يعبدون؟

وأي سيد يطيعون؟

بلـى إنـك علـى حق، ألم تطغَ ثمـود وأشـقاها إذ عقـروا الناقـة وقـد طلبوا العدل فلمـا جاءهم العدل عدلوا إلى الجور وجـاروا حتـى هتكـوا الجوار!

أي خـير يُرجـى ممـن كان خَلْقُـهُ في عَجَـلٍ، يَمَسُّـه الخـير فيمنـع، ويمسه الشرُّ فيجـزع، إن فُتـح لـه بـابٌ الخير طَمَع، وإن هُـزَّ خَضَـع، ولا يمـلأ جَوْفَـه إلا حفنـاتٌ مـن ترابـك يـا صاحبي.

ولكن أي الجبال أنت وفي أي الأرض أنا؟

أظنني لم أمش إلا ساعة من نهار حتى وجدتهم يصعدون بـي إليـك دون أن يرهقهـم الإعيـاء وهـم يتسـلقون ظهـرك وكأنهـم قـد ظفـروا بالكنـز في أعـلاك، إنـك لصعـب المرتقَى أيها الجبـل؛ فأي الرِّفاق أنت؟

وأي الجيران الذيـن جاورونـا أو جاورناهـم تلـك القـرون الطوال؟

بالله عليك أكنتَ ظهرا لنا أم ظهيرا لأعدائنا الغزاة؟

أكنـتَ مـأوى للمجاهديـن وحاميًـا لهـم مـن ملاحقـات

جيش الاحتلال، أم كنتَ عينًا للخونة تتخطف جنود الحق وتبطش بهم وترمي بجثثهم على أنحائك؟

بالله عليك إلا حدثتني أَمُزِجَ ترابك بدماء الشهداء واختلطت حجارتك برُفاتهم؟

أم أنك كنتَ موطنا رَخْصًا لجنود العدو وثكنة يترصدون منها الفِدائيين حتى لا تصل المؤونة والبنادق والأموال إلى أيدي المجاهدين؟

أكنت عاملا بما يوحَى إليك من آيات السماء أم تنكبتَ السبيل؟

ما أظنك إلا وجهَ خير وصاحبَ حق غيرَ مَيَّالٍ ولا مُختال، وما أرى قد خُطَّتْ على صفحاتك إلا مَلاحمُ القتال المقدس لتحرير الإنسان من عبودية الزمن المتوحش ..

واهتزَّ الجبل مرة أخرى وانتفض على جَنَباته غبارٌ كاد يغطي كل شيء، ثم سمع المحتجز صوتا عنيفا وكأنه صاعقة قصمت الأرض، فرُعِبَ رُعْبًا شديدا حتى كاد يغمى عليه، ولكن هلعه زاد حين رأى أمامه ..

من هؤلاء بحق السماء؟

كان الجنود يحملون بنادق صيد وعلى ظهورهم حقائب ربما ملئت بعض الطعام والماء، وفي كل حين يندلع صوت الرصاص قريبا من الغار الذي هو فيه، والصيحات والتكبيرات تتوالى ثم تهفت قليلا ليصُمَّ الآذانَ صوتُ طيران

يحوم غير بعيد عن هذه الأشباح التي تراءت للمحتجز في الغار، أشباح لها عيون تبصر بها وآذان تسمع بها وأفواه تصيح بها، أهي أشباح أم أرواح؟

أأشباح ذات نفوس أم أرواح لا تُداس ولا تدوس؟

أم أن ثائرة الجن ثارت حين اعتصرت الشمس ومالت كل المِيل عن كبد السماء؟

وطَفِق ساكن الغار يبحث عن حَصَيَاتٍ ليَخْذِفَ بها تلك العفاريت التي تنبجس من الأرض انبجاس الماء من ينابيع الصخر الأصم، تتطاير في كل مكان وكأنها تهوَى صدور أعدائها ولا تبحث عن مقابر لرصاصاتهم إلا في قلوبهم، وحَبَسَ مَراكبَ الأعداءِ حابسُ الفيل، واغتنم الجنود فشدُّوا الغارةَ كارِّينَ غيرَ فارِّين ..

كُرَّارًا غيرَ فُرَّارٍ ..

فداهموا مواقعَ الشياطين كأنما سيل العَرِم إذ يجتاح سبأ فلا يُبقي حجرا على حجر ولا رأسا على جسد، ولكن هؤلاء اجتاحوا عدوهم فما أبقوا روحا على قلب ولا فكرا في لب، وهُرِع الأعداء المدججون بالسلاح لائذين بالهرب، وساخت نجداتهم في شعاب الجبل الملتهب، لكن المحتجز لم يظفر بحصاة ليدفع بها عن نفسه هول المعركة، كاد يختنق من ذَرِّ الغبار وانصباب العرق في كامل جسده المنتفض، أما عيناه الجاحظتان حِينًا والناعستان حينا آخر

فقد تسمَّرتا في جثة رجل على باب الغار يوشك أن تفيضَ روحه ، وإلى جَنبه فتاة تئنُّ باكيةً وهي تحاول تضميد جُرح عزيزها غيرَ عابئة بتلك الخدوش في خدها المتلألئ ولا في ذراعيها المشمَّرتين ، لم يدر أهي جميلة أم أنها أجمل من رأى من النساء والفتيات من قبل وحتى ممن سيراهن من بعد إن كُتِبَ له الخروج من هذا الغار ، ولو خرج فستعمد زوجته لمحو ذاكرته المعبأة بصور النساء من دون شك.

لا يزال يسمع أنين هذه الشابة ..

من يكون هذا المقاتل يا ترى والذي يبدو أنه أصيب إصابة بالغة إثر هجوم هؤلاء الأعداء ، هو لا يعرف أي طرف من المتحاربين ، لكنه شمَّ في رفاق هذا المُحارب الجريح رائحة التراب التي تتضوع من الجبل ، لا شك أنهم خُلقوا من ترابه لذا سيهزمون بكل حماس أشرسَ أعدائهم وسيغنمون سلاحه الجبار ، وسيعودون إلى نسائهم مستبشرين بانتصار الحب..

آه ، ما لِصوت الشابة وكأنه عَزْفُ ناي حنين إذ تضع من ريقها على أصبعها ثم تضعه في التراب مترنمة بكل عشق :

«باسم الله ، تربة أرضنا بريقة بعضنا يُشفى سقيمنا بإذن ربنا».

واهتزَّ الجبل خاشعا مما سمع ، وعلم المحتجز أن وحي السموِّ يتنزل ، فلا جرم أن تنتصر دموع الفتاة ويخشع الجبل.

- أتسمعينني أيتها السيدة؟ فُكِّي عني هذا القيد وسأسعف مريضك، لقد شاركتُ في دورة قبل عام لاكتساب مهارات الإسعاف الأولي، هل تفهمينني؟

ما لكِ تنظرين إليَّ بعين الرِّيبة، أم أنها نظرة هازئ من حالي؟

أنا والله مختطف من بيتي منذ ساعتين ولا أدري أين أنا بالضبط، فهلا فككتِ القيد عني؟

ابني اسمه خزيمة وزوجتي لا يعلمان عني شيئا، أظنك -وأنت قلقة على بطلك الجريح- تفهمين ما أقول ..

أخبريني وأنتِ من تراب هذه الأرض أي مكان نحن فيه، وأي الجبال هذا الذي يُؤوي مختطفا مثلي؟ أرفاقك هم من احتجزوني هنا؟ أم لعل أعداءكم الذين فروا منهزمين هم من أتوا بي كرهينة؟ ألا ينبغي أن تحرروا الرهائن بعد نصركم المؤزر هذا؟

كنت أعلم جيدا أن رفاقكم انبثقوا من هذا الجبل العظيم فغاروا عليه كما يغار الصبية على أمهم الكريمة، واسألي إن شئت الجبل، فقد حدثتُه الأحاديث الطوال عنكم وعن أعدائكم، وكنت سأغضب عليه لو خذلكم أو خدعكم ... اسألي أيضا ذلك الشيخ، هل تبصرين الشيخ الذي يقابلك في الجهة الأخرى من باب الكهف، نعم إنه شيخ في ثوب شَرْخٍ، اسأليه ما حدثته عنكم فما أرى عينيه إلا صادقتين،

وما أراه إلا حافظا أمينا لما أسررتُ به وما أعلنت ، ولعله أكثر إسماعا لك وأوسع بلاغة مني .. هل تعلمين من هذا الشيخ ؟

إنه الذي كان يَعِدُ صاحبك برغد المعيشة ، وكان يعد والدتك بعرس أبهى من عرس جاراتها اللئيمات ، وكان يعد والدَك بأن الغيث سيهطل واكفًا على أرضه فلا تحتاج أنعامكم إلى علف المدينة ... لن تنفعك حيرتك وأنت تنظرين إليَّ غير واثقة بكلامي ، فأنا أسير ولا يمكن للأسير أن يكذب أو يراوغ في كلامه ، ولو أمكنه أن يتخطى كل صور المجاز في حديثه لتخطاها ، الأسرى لا يؤمنون بالمجاز تماما كابن تيمية أسير القلعة يا فتاة ، ألا ترين أني أتحدث بما أظنك تفهمينه ، وقد سمعتُ صيحات رفاقك المحاربين فألفيتُ أنها كاللسان الذي أخاطبك به الآن.

قد بشْشتكِ مَواجدي أيتها المرأة الغريبة ، ولا أدري أأنتِ وصاحبك ضيفٌ لديَّ فعلى الرحب والسعة .. هذا اللبن وهذا الخبز .. أم أني ضيف عندكما فهل تكرمون الضيف بالأَسْر؟ ها قد وضعت الحرب أوزارها ، فإما مَنًّا بعدُ وإما فداءً .. ولا حديث لي معك بعد الآن.

كان الإغماء قد بلغ به الجَهد ، الخوف والجُوع ذَوَا حُكْمٍ عَضوضٍ.

6
غواية المنطق

«وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين»

قرآن

اِشْتَدَّ وَكفُ المطر خارج الغار بعد أن اعتصرت الشمس، هكذا أمطار الربيع في تلك النواحي، وأمطار الصيف كذلك، حيث لا ظِلَّ باردًا تغلي كرة الشمس فتكاد تصهر تحتها جوانب الأرض الممتدة بين الآفاق، ثم يَشْتَدُّ الحَرُّ حتى ترضَخَ له أرواحُ الخليقة ظامئةً لسُقيا السَّماء، فإذا بلغ منهم الجهد سُمِع صوتُ الرعد مُبَشِّرًا بموكب غيث مَريع، لم يتوانَ المُحْتَجَزُ عن الحركة لعله يظفرُ بقطرة مزن تَسقِي جسده الظامئ، لكن القيود جعلته يقبع داخل هذا السجن المعزول عن العالم وكأنْ لا أحدَ يسكن على ظهرها غيرُهُ، حتى الغربان اللعينة اِخْتَفَتْ صيحاتُها وراغت إلى جحورها هاربةً من غضب السماء.

تلك الطيور السوداء كانت هي المعلم الأول قبلِ أن يولد أرسطو بعشرة آلاف عام، وحين نَبَغَ أرسطو في أزِقَّة أثينا

لم يأتِ بأجودَ مما علَّمنا الغراب ، ولكنَّنا لمزيد من اللؤم في عقولنا تناسينا في مناهجنا الدراسية المنطق الغُرابيَّ واكتفينا بتعلم المنطق الأرسطي ..

أوليس هذا بالضبط ما أفعله الآن أنا؟

أو لم ألعن تلك الغربان الناعقة قبل أن تدهمها الهواطل؟

ولو كنتُ أبصر بعين العقل لأدركتُ أنها خير مني ، تطير متى شاءت وتَفِرُّ متى شاءت وتصيح متى شاءت ، أما أنا فعين لا تبصر ولسان لا ينطق ويد لا تبطش وقدم لا تسعى ، ولولا أن مَنَّتْ عليَّ العصابة بفك العُصبة لقبعت في ظلمات ثلاث ..

أَأَوْهَنُ مني في الخليقة؟

أَأَجْهَل مني بالحقيقة؟

آه منك أيتها النفس!

والتفَتَ إلى ذاته التي بين جنبيه وقد أخذتْ ناحية من صدره وكأنها ضَجِرة من هذا المحبس ..

أتعلمين أيتها العزيزة إذا زاد ضَجَرُكِ وتنامى وجعك فإن ذلك يَرْتَدُّ عليَّ بأكثرَ ما هو عليك ، إي والله إني ليَحزُنني حزنك يا نفس ، ويوجعني بكاؤك ، إني لأحزن لخلوتك وآسَى لوحشتك وأنتِ تتخذين ناحية من صدري كالغضبى التي يصعب رضاؤها ..

أما تدركين أنك مِنِّي بمنزلة البنت من والدها؟

أو الحبيبة من عاشقها؟

يَسومها دلالا فتزداد ترفُّعًا لأن مادة حياتها هي الدلال أو الإذلال، بالله عليك هَلُمِّي إليَّ فقد اشتقتُ إلى عناقك وافتقرت إلى حنانك، ما أرى وحشتك مِنِّي إلا أشدَّ من وحشتي في هذا الجبل الأعزل إذ لا أنيسَ إلا اليعافيرُ وإلا العِيس، وما أراني إلا باكيا مع بكائك وناحبا مع نحيبك ..

يا نفس أتبكين معي عليَّ، أم تبكين على حبيب لا أعرفه غائر في أنحاء صدري؟ ولكني لا أعلم أن أحدا أحبك مثلما أحببتك، ولا أعلم أن أحدا سكن صدري غير هذا الفؤاد النابض، فبالله لا تأبهي لأبي الطيب حين زعم أنه مجمع الأشواق، فذاك لم يعرف صدق بكائي معكِ عليَّ ولم يسمع نَوْحَ ابن زُهْرٍ إذْ ناحَ:

وبكى بعضي على بعضي معي

أما ترين كيف يختلط النحيب بيننا وتجتمع دموعُنا على مأساتي في هذا الكهف المظلم؟

أأصدقُ مِنِّي رأيتِ؟

أيتها النفس نحن الثلاثة شركاء في هذا الأسر، نحن شركاء في هذه الغربة، وليس من حقنا إلا أن ننشد قول المَلِك الضِّلِّيل:

أيا جارتا إنَّا غريبان ههنا ❖ وكلُّ غريب للغريب نسيبُ

لا أدري؛ المِنَّة لك حين شاركتِني وحدتي هذه، أم لي

المِنَّة أني شاركتكما بَوحي ونَوحي وأنتما تلزمان الصمت، وكأنكما معتكفان في مسجدٍ مُحَرَّمٍ عليكما فيه اللغوُ مع الخليقة؟

أترياني أَعْبَثُ في الخطاب أم أن صوت حديثي لا يقرع مسامعكما؟

أم أن بينكما كلاما لا أسمعه؟

أي لغة هاذه التي في حواركما، أم هي التعميةَ[2] تحكم معادلة التواصل بينكما وأنا الجاهل بقواعد التشفير وفنون التضليل؟

أيُّ بعض ذاك الذي بكى مع الأندلسي نفسَه؟

حيرة بالِغة يا نفس!

آهٍ على الثلاثة وليس فيهم متحدث غيري وكأني مع أَصَمَّين أَبْكَمَيْن وربما أَعْمَيَانِ لا يريان حزني ودمعي..

أما تعلمان أن كل ثلاثة ظعنوا فليتخذوا منهم أميرا يقوم على شؤونهم؟

أمِّراني عليكما إذ أنتما الصامتان المُلْغِيان أحاديثي وتباريحي، فلي أن آمُرَ وأَنهَى وعليكما السمع والطاعة، ولعلكما تهزآن مني وتقولان في هينمة أتحَسَّسُها منكما: ما لهذا الأمير الأسير؟ فلينقذ نفسه من الأسر وليأمر من شاء بما شاء، وليتخذ من الرعية كل خانع، ومن البطانة كل

---

2 علم التعمية أو التشفير وبالإنجليزية يصطلح عليه باسم Cryptography.

خاضع، ومن الخدم كل عائل جائع، فإذا تمردت رعيته وفسدت بطانته وشبع خدمه؛ فليستبدل رعيةً غيرهم ما دام يحسب أنه الأمير في الأزل والأبد ...

إي والله إني لمُصْغ لهَيْنَمَتِكُما ومُدركٌ صوابَ ما تدندنان حوله، ولكن داء التَّسلط عليكما ومع أمثالكما جعلني أحسب أني نِصْف إله، ما أُريكما إلا ما أرى وما أهديكما إلا سبيل الرشاد، ولكنْ عليَّ أن أصارحكما: إن كنت أظن أني مسيطر عليكما ومتحكم فيكما فإني والله لأرتعد الرعبَ منكما، أمَّا أنتِ يا نفس فباكية ذات نحيب، وأما أنتِ -يا من بكيتُ مع نفسي عليكِ- فصامتةٌ الصمتَ الرهيب، وما يغلب ذا جبروت مثلي إلا بكاءُ مظلوم أو صمتُ مكلوم، أبدا لا يهزمه ضجيج الجوعى، فطغيان الجوع يكسره عُود الشبع، ولكنني سأظل محاولا هزيمتكما ناقمًا عليكما هذا الاستفزاز المرعب، إن بكاء الثكالى لعنة تلاحق أنصافَ الآلهة في تجلياتهم الآدمية.

أرهقتَني يا ابن زُهر!

أرهقني البعضُ الذي بكيتَ عليه مع بَعضَيْكَ!

7

غواية ابن خفاجة

"باب من أحب في المنام"

أَمِنْ غير جدوى أصيح ولغير مُنْصِتٍ أشكو؟
أأبكي فيَحِنَّ عليَّ العَدمُ الجاثمُ حولي، أم أكتم المَواجع فيتفرَّسَني الدَّهرُ اللّاظُّ بكتفيه على جدار الكهف؟
أيها الشيخ الفاني أما تعي قولَ ابن الأبرص:

تصبو وأنَّى لك التصابي ❖ أنَّى وقد راعك المَشيبُ [3]

أما ترى الشيب وقد اشتعلتْ به جُمَّتُكَ؟
أولا تخجل من هذه الصبوة وقد عَجِبَ رَبُّك من شاب لا يتصابى، وأنتَ قد عُمِّرْتَ كل تعمير وعاصرت كل بالٍ وحديث، ولا تزال تتفقد فُتُوَّتك وكأنها بِئْرٌ لا تنزح وعين لا تنضب، أم أن لك الحق في معاودة الحياة إذ كنتَ سالبَ الناس شبيبَتَهم ومانحَهم عَجْزَهم دون أن يقوم عليك

3 معلقة عَبيد بن الأبرص.

مُعْتَرِضٌ أو يقف في وجهك ابن أمه وأبيه؟

كل الحق لك إذن أيها الدهر العابث بالخليقة، لن نَعْدوَ أقدارنا ولن نخرج عن حُكْمك قيد أنملة، أم أنك تهوى مصارعة الأقران فلم تلْفِ من يضاهيك صبرا؟

على الخبير سقطتَّ يا صاح!

إني لَجَسورٌ على ما تفخر به، ولا تقولنَّ ما قاله الرجل الصالح لرفيقه «إنك لن تستطيع معي صبرا»، فلستَ أشرفَ ولا أعلم منه، أمَّا أنا فإني سأتلمَّس عنادَ موسى حتى أُرْهِقَك بما لم تُحِطْ به خُبْرًا ...

أفترضَى بالرِّهان يا صاح؟

أو تُذْعِنُ لشَرطي يا ذا الضَّامر العَنْس؟

فأصْغ إليَّ:

إذا هزَمتني فلك عليَّ أن أهبك حقي، كما وهب آدمُ داودَ أربعين سنة من حقه، وإذا غلبتُك فلي عليك أن تبعث الأشياخ أناجيهم فيسمعون نجوايَ ساعة من نهار، أرأيت صفقة رابحة أجدى من هذه؟

ساعة مقابل أربعين سنة يا شيخ!

فأَصْغ إليَّ بسمعك إذن؛ سأنبئك أن حكمك ليس سواءً على النّاَس كلهم، وأنك مائل لبعضهم عن بعض ...

أما ترى ليل العاشقين كيف يطول إذا نأى بهم المزار، وكيف يقصُر إذا هم كانوا مع عشيقاتهم؟

أما ترى المريض كيف تتثاقل عليه خطواتك أيها الدهر حتى يحسب أنك جثوتَ على ركبتيك عنده فلم تبرح؟

وتراه يَئِنُّ نهارا فإذا عمَّ الليل وقلَّت الراجلة ورجع زُوَّارُهُ كلٌّ إلى شُغله أو داره؛ حَسِب المريض أنك أيها الزمن فقدتَّ الحياة وما يرى بجواره سوى جثمانك كأنه العنبر مَلْقِيًّا على الشاطئ بعد أن قذفت بك أمواج الحَدَثانِ بين يدي ذلك المُنْهَك، فتراه يَئِنُّ ويمتد أنينُه على الآباد ويظن في كل أَنَّةٍ زمنًا منك لا يتناهى، ثم يصل به الحال أن يكفر بك ولا يتحسس لك أي وجود، ولا جَرَمَ إذا كفر بك ما دمت أنت مذبذبا بين المؤمنين بك والجاحدين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ..

ما دمتَ أخفى من نفسك عن ناظِرَيْكَ ..

ما دمتَ تتخفى وأنت الأجلى ..

وتتجلى وأنت الأخفى ..

فأنت لا تدرك حقيقة نفسك ولا تعي تقلب أحوالك، فكيف لمريض أقعَدَتْه الأدواءُ أن يَظَلَّ مؤمنا بك وقد عطلت طاقته الحياتية ورميت أمام عينيه بجذوة من نار الطِّيَرة، فكيف يتلمَّحُك وقد عشوتَهُ بجِذًى مُلْتَهِبَةٍ؟

أم تحسب نفسك أبهرَ ضياءً من ضوء النار؟

وأي نور فيك وأي ضياء وأنا لا أكاد ألمح منك إلا تجاعيدَ غامقةً ولولا أن القلب يراك ما أبصرتك العين!

بالله عليك لِمَ تَضِنُّ علينا المواسَم الجميلة؟ فلا ينبثق نور

الفجر يوم العيد حتى يغرق الكون في ظلام دامس والناس تقول : كيف مضى العيد؟

حين تكتسب صفة الجمال لدى الخليقة تتنكب فتزيح مذاق الجمال عنهم ، تماما كالتمرة إذا أُلْقِيْت من الفم اندثرت حلاوتها.

ها أنت تضع يدك على الجرح وتدرك ما للخليقة عليك من مَظالم ، فهل لك أن ترضخ للبرهان الذي تلوتُه عليك وهلَّا خضعتَ للحق مرة في هُويَّتِكَ وأنت الظَّالُّ على الضَّلال ، والراضي بمَنازل المكرِ والاحتيال ..

هلا خضعتَ لِلائح البراهين حتى تنال مدحا صادقا وتسير بذِكْرك الركبان؟

ألا فاعقلِ يا صاح !

ولا تَغْرُرْكَ عيناك الجاحظتان وكأنك تريد أن تُرهب بهما جليسك ، فقد استوى عندي الترهيب والترغيب ، وإذا عجزتَ عن أن تُرهبني بصروف أياديك في العمر الطويل ؛ فما أنت بأقدرَ على ترهيبي بجحوظ عينيك أو بقائك على الصمت كالصنم الهامد ، وما أراك بِصَمْتِكَ هذا إلا فتنة لبعض الخليقة التي اتخذتْ منك رَبًّا يعبدونه ، وقالوا إن هي إلا حياتنا وما يهلكنا إلا الدهر ...

فتعلَّمْ !

لن تجد عندي ما ظفرتَ به لديهم ، وكما بُحْتُ لك بحزني

فيما أعجز عنه، فإني أواجهك بقوتي فيما أقوى عليه، فَاعْقِل يا دهر، ومِثْلُك سَبَرَ الناس وخَبَرَهم، والظن بك أنك تعرف الصادق من الكاذب وتعلم الثابت من الواثب ..

أما سمعتَ كيف أنَّ الجريحُ الذي كانت تعالجه الفتاة قُبالتَك؟

بالله عليك، اُصْدُقْني القول:

هل شعرتَ بصِدقِ أنينه وأحَقِّيَّتِه في الحرب الدائرة بينه وبين عدوه؟

أما شممتَ من عَرَقِه رائحةَ تراب هذا الجبل الذي تؤنس فيه وحشتي أو توحش أُنسي؟

أما رأيتَ كيف تنبثق آهاتُ الفتاة من شِعاب هذا الجبل وكأنها تردد صيحاته، بل كأنها هي صدى لأوجاعه الأزلية؟

أيها الدهر الشامخ، ما أراني إلا قد غلبتك في الرهان، فهات يدك لتعترف اعتراف النبلاء بالخسارة ولا ترتاد حماقة الجبناء، هات يدك ولعل جولة أخرى بيننا يكون لك فيها النصر وسأعترف لك به عهدا عليَّ وميثاقا غليظا.

فمدَّ الشيخ يده وقد جَفَّتْ شِفاهه وأظلم وجهُه على وَقْع الغيث الذي لم ينقطع، وتجلى النور بينه وبين جليسه المحتجز في الجبل الأعزل، وإذا بالأرض تَمْتَدُّ من أمامه، بينما ظلت السماء تمطر البادية، وظهرت الشمس بين الغمام ناحية الأصيل، فنادى شيخ هنالك أهل بيته وقد كانت النساء

تُطِلُّ من النوافذ والصبيان يخرجون ويدخلون:

- «يا فلانة، هو عرس الذيب».

كان الصِّبْيَةُ فرحين بهذا الجو المبهر، زخات مطر بارد وشمس تداعب بشرتهم الناعمة بضوئها الحريري الفاتن، كانت إحدى جميلات ذلك البيت لا تفهم ما يعنيه الشيوخ بعرس الذيب، حتى أمها التي تعرف الرجال خيرا منها لا تفهم ذلك، فأرسلت الشابة أحد الأطفال وقالت له:

- «اسأل جَدَّك لماذا يقولون عنه إنه عرس الذيب؟»

فانطلق الصبي ليسأل، وفي بال الفتاة أن الأمر -ولا بد- له علاقة بالأعراس والزِّيجات، أو لعل قصة أسطورية حدثت في جو كهذا، مِن قَبيل أن شابا كان يقال له «الذيب» تزوج في يوم كانت فيه الغيوث تهطل والشمس تبرق بشعاعها بين خلل السحاب، ولكنها فضَّلَتْ أن تنتظر ما يأتي به الصبي من عند الجد الذي لا شك أنه يعي ما يقول ويحفظه عن ظهر قلب ويعرف تاريخه وقصته وكل ما يدور به، ولكن الصبي التعيس بدل أن يذهب للجد ويسأله قرَّر أن يجمع باقي الأطفال ويسرب إليهم كذبة مفادها أن تلك الشابة تريد أن تقيم عرسا مع الذيب، ولا تزال الشابة تنتظر بينما الصِبيان يتضاحكون عليها ويتهامسون فيما بينهم، واتفقوا أن ينادوها زوجة الذيب، وبعد هنيهة هجم الأطفال إلى داخل البيت وهم يصرخون في وجه تلك المرأة الخجولة

ويـدورون حولـها هاتفـين «زوجـة الذيـب، زوجـة الذيب»، وهـي بـين ضحـك سـاذج وحمـرة تداعـب خديهـا الممتلئتـين حياة وفتنة، كانت حوراء شـديدة سـواد المُقَل في شدة بياض العيون الواسعة، أما شعرها فقد انسدل حتى قارَبَ فَخِذَيْها دون أن يلامـس ظهرهـا، لضمـور الخصـر الـذي ينبسـط إلى فتنة عظيمة تحته تشد الثوب حتى يكاد أن يتمزق؛ لولا مزيد مـن الرقـص قبـل طلوع الشـمس وبعـد غروبهـا، راح هؤلاء الصبيـان يحاولـون العبـث بمفاتنهـا لكنهـا هوت علـى أحدهم لتصفعـه فهـوى صدرهـا المكتنـز، وتلمَّـح الصِّبيـانُ المشـهد الذي يسمعون عنه في حديث العجائز أنه المشهد الذي يرهق الرجـال ويهزمهـم عن بكرة أبيهـم وجدهم.

فقال أحد الصبيان صائحا كالطير:

- ما هذا يا زوجة الذيب؟

ليرد عليه إبليسٌ صغيرٌ مثله:

- هذا ما تخبئه العروس لزوجها الذيب!

لكنهـا قـررت لمـا وصلـت بهـم الوقاحـة إلى هـذا الحـد أن تصفعهـم جميعـا، فهربـوا إلى خـارج البيـت ليواصلـوا عبثهـم فيمـا بينهم، وتواصل الشـابة عبثها بخصلات شـعرها المتطـاول، واقفـة عنـد النافـذة تحـاول أن تبتهـج بمـا يبتهـج بـه الأطفـال، غير أن قلبهـا يأبى إلا أن يفتـح بـاب الفكرة على مصراعيه، راحت المسـكينة تطل من باب قلبها، بينما عينُها

على بعض ثقوب النافذة المهترئة تترقب هل من حبيب أو خطيب ؟

«قد بلغتُ تسع عشرة سنة أو أربعة وعشرين عاما ولم أتزوج ، أما أمي فتقول إن لي من العمر أربعة وعشرين عاما ، أما أبي وخالتي وزوجة جدي فيقولون إن لي تسع عشرة سنة ، لا شك أن أبي وخالتي وزوجة جدي أكثر من أمي عددا ولا يمكنهم أن يتواطأوا على غلطة كهذه ، وأنا أفضل أن يكون عمري تسعة عشر ولا أحب أن أصدق أمي ، لكن أمي هي الصادقة حتى إن اختبأتُ خلف أبي وخالتي وزوجة جدي !».

كان المحتجز قد أعجب بالفتاة أيما إعجاب ، ولكنه تذكر أن صورتها الجميلة تلك والتي انطبعت في خياله ستتعرض للمسح النهائي مع سائر صور النساء بمختلِف أنواعهن وأشكالهن وألوانهن وأحجامهن ، سيكون ذلك المسح على يد الزوجة العزيزة التي تضع خزيمة في حجرها أو على الطاولة وينتظران رجل المنزل أن يأتي ليتناول غذاءه معهما بعد صبيحة من العمل الشاق ... وبعد تأخر غير مقبول !

وتذكَّرَ جاره العجوز الذي لا يملُّ من ترداد نصائحه إذ يقولُ له صباحَ مساءَ :

لا يْغُـرّْكْ نُـوَّار الدفلـى ❖ في الـوادْ عامْـل ظْلايْــلْ
وْلا يْغُـرّْكْ زِيـن الطُّفلـه ❖ حتـى تْشـوفْ الفْعايْــلْ

كان جاره العجوز قد تزوج عشرَ نساء، كلَّ أربعةٍ معًا .. بعضُهنُّ تذبُل بالطلاق وتسقط أوراقُ بعضِهِنَّ بالموت.

اللبن لا يزال كما هو والخبز كذلك ..

ألن يَمُنُّوا عليَّ بأكلة ساخنة هذا المساء؟

لا أدري والله فالأسير حكمه بيد آسره، ولكني أجد نفسي أسيرا ألف مرة، تأسرني عصابة لا أعرف من همِ ولا ما غرضهم من احتجازي ولا ما يطلبونه مني، ولا لم سيتركونني جيفة للغربان إن هم قرروا ذلك أو إن هم نسوَا حالي؟

وتأسرني شابة جميلة انبعثت أمامي وأنا أصافح الدهر بعد أن تظاهر بهزيمته معي ولا أدري لعلها حيلة من حيله الكثيرة انطلت على مخبول مثلي ..

آه كم أُسِر قبلي من ظالم ومظلوم في هذا الكهف الموحش؟

وكم من طريد أوى إليه وقد عَضَّهُ الدهر بنابه؟

وكم من شريد وجد فيه الأهل والمسكن والمطعم؟

وكم من عاشق هرب إليه خوفا من فضيحة الحب بين عشيرته؟

وكم مُذنبٍ فَرَّ إليه لعل وحشة الغار تزيل عنه وحشة الذنب؟

وكم من سيد قوم استجار به فأجاره، واستشاره فأشار عليه ما يفعل بمصائب الدهر إذ حلت عليه وعلى أهله وعشيرته؟

ثم التفت إلى الكهف مخاطبًا:

كم تبتل فيك عابد أيها الكهف فكنتَ له مسجدا أو معتكفا ينقطع فيك من الأرض ويلتحق بالسماء، وأنت أهل للارتقاء يا ذا المنزل الراقي، فكم ممن مواعظَ سمعتُها ولكني لم أجد أصدق منك أيها الجبل، تحمل هموم الحياة وتشهد على سيئات الناس وحسناتهم وتكتم أسرارهم وتُؤوي ضعيفهم.

أنت مَجْمَعُ التأملات وملتقى الحِكَم..

نُسِرّ إليك بعيوبنا وخطايانا فتمنحنا ألف مغفرة..

وألف عذر..

وألف صفحة جديدة..

وألف حكمة نخطها في تلك الصفحات.

أيها الشاهد على الخليقة؛ ها قد أويتُ إليك قَسْرا وأوى إليك الدهر مكرا، فكنتَ أكبر منا جميعا، أليس هذا هو الزمن الذي مرَّ على كل الخليقة وقد انحصر في ركن من أركان هذا الكهف في ناحية صغيرة من هيكلك العظيم؟

حتى كأنك لتهزأ به ولا تشعر بإيوائك له، ليدرك ضآلة ذاته المتجبرة على الناس، فلو رأوا سخريتك منه لسخروا منه، ولأمكنهم ذلك من أن ينالوا حريتهم التامة، فكم قَيَّدَ الدهرُ حركاتِ الخليقة وسكناتِهم، وحَصَر أقوالهم وأفعالهم، وحشرهم في مضمار التقاويم يتسابقون فيه، وجعل من سعة الأرض ورحابتها سجنا صغيرا مليئا بالأسرى الذين يصيحون فترتدُّ صيحاتهم على جدرانه، وترجع عليهم فتقتلهم شرَّ قِتلة ..

هذا المتجبر على الخليقة قد لَظَّ بكتفيه على جدران كهفك أيها الجبل؛ فهلَّا أنصفتنا منه وقسمتَ بيننا وبينه بالحق؟ لعلك تجعل مكسب الحرية دُولةً بيننا وبينه، أو تمنع عنا غاراتِه التي يَشُنُّها علينا كل مرة ..

ما أرى أشدَّ فَتْكًا بهذا المتجبر غيرَ عظيم الجِبِلَّة مثلَك أيها الجَبل!

ثم ارتاع المحتجز لشيخ يتسلل بعصاه من شُرُفات الزمن، ينظر يُمنةً ويُسرةً كأنه خاتل يدنو لصيد أو آبق ينوي الفرار، لكنْ على قسماته تبدو نفسه متوهجة بالحكمة والوقار ..

أي شيخ هذا الذي تجلى من عبق التاريخ بثياب غايةٍ في الأناقة ولحية كَثَّة يَزينها بعضُ الشيب، وعطرٍ ملكيٍّ يُنعش الروح كما تنعش قطراتُ الغيث الأرضَ المَواتَ، فاهتز الجبل كما يَهْتَزُّ المُشتاق إذا قَدِم عليه حبيبه الذي غيَّبَه الدهرُ

في تضاعيفه، وابتسم الشيخ كأنه يعلم كم حَنَّ إليه صاحبه فأنشد مترنِّمًا :

وأرعنَ طَمَّاحِ الذُّؤابة باذخٍ ❖ يُطاول أعنانَ السَّماء بِغارِبِ
يَسُدُّ مَهَبَّ الريح من كل وِجهة ❖ ويزحم ليلا شهبُه بالمَناكبِ
وقورٍ على ظهر الفلاة كأنه ❖ طِوال الليالي مُفْكِرٌ بالعواقبِ
يلوث عليه الغَيْمُ سُودَ غمائم ❖ لها مِن وميض البَرق حُمْر ذوائبِ

فارتعش المحتجز من بلاغة الشيخ وقال له :
- بالله عليك ألسَت ابن خفاجة؟ ألست الأندلسي الذي صحب الطبيعة واستنطق عجماواتها؟ فعلى الرحب والسعة يا خِصْبَ القريحة ويا ثَجَّ المقال ..
أتعلم أيها الشيخ الكريم كم تعلق الناس بأبياتك تلك وكيف جعلتهم يتعلمون أن الآدمي يمكن له أن يتواصل مع آدمي آخر بتصريف المعاني النفسية في قوالب الألفاظ دون الحاجة إلى أن يقتل بعضهم بعضا لتحقيق ما يريدون من منافع الأرواح والأجساد؟
فقد علموا من شِعْرك أن الآدمي كان يتواصل مع العجماوات والجمادات ويحادثها ويسمع شكواها ويبتهج لأفراحها، وفتحتَ لهم بابا واسعا حين بلغهم أن أُحُدًا جبلٌ يحب أصحابَه ويُحبونه، وأنه جبل يهتز شوقا لأحبابه

وفرحا بقدومهم، وأن حِراء كان غارا يأوي اللائذَ به اللياليَ ذواتِ العدد ليُسمعه خبر السماء، ويخبره أن وحشة الغار أكثر أُنْسًا من ضجيج الإنسان ذي الأنس، فنِعْم ما عَلَّمْتَنا أيها الشيخ، ولك المِنَّة أن كشفتَ لنا بأن اللغةَ لا السلاحَ هي التي تزرع الحب وتحصد القمح ..

يا لجلالة الكلمة لا الملكة ..

يا لعظمة الكلام في ألَقِ المَلاك ..

ما أشد الحرف حين يغرز شوكته في حلوق الظلمة!

بل ما أشد غرزه حين يغرز في قلوب الغانيات!

وما أثقل وطأته على أكتاف البؤساء!

بل ما أشد ثِقَلَهُ على صُمِّ الجبال، ينزل عليها فإذا هي خاشعة من لُطفه متصدعةٌ من جلالته، ولو سمعها ذو أذن -وقد سمعتَها يا ابن خفاجة- لسمع بكاءً ونحيبًا، ولو رآها ذو عين -وقد رأيتها يا ابن خفاجة- لرأى دمعا يملأ شعابها، فكم ذا علمتنا يا شيخ، وكم ثقلت أفهامنا ..

فأخبرني ما حدَّثك؟

إذ عهدي بالشعراء يسمعون حديث الجن، ويسامرون الأقمار، ويُسْقَوْن كؤوس الحياة، ويحادثون الأطلال، ويُقَبِّلون الجدران، ويعقلون ما تقوله الأعين، ويتذوقون الخمر بغير لسان ..

فقل لي بالله ما حدثك صاحبك الطَّمَّاح؟

تنهد الشيخ قليلا ورمى ببصره إلى غير مَرأى، واستأنف شِعْرَهُ وكأنه لم يكن يسمع ما دندن به المحتجز المسكين، فقال:

أَصَخْتُ إليه وهْو أخرسُ صامتٌ ❖ فحدثني ليلَ السَّرى بالعجائبِ

وقال ألا كم كنتُ مَلجأ قاتلٍ ❖ ومَوطنَ أوَّاهٍ تبتَّل تائبِ

وكم مرَّ بي مِن مُدلجٍ ومُؤَوِّبٍ ❖ وقال بِظِلِّي مِن مَطِيٍّ وراكبِ

فما كان إلا أن طوتْهمْ يدُ الرَّدى ❖ وطارت بهِم ريحُ النَّوى والنَّوائبِ

فحتى متى أبقى ويظعنَ صاحبٌ ❖ أودِّعُ منه راحلًا غيرَ آيِبِ

وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا ❖ فمِنْ طالعٍ أُخرى الليالي وغارِبِ

كانت روح المحتجز قد ضَجَّت بهذه الأبيات حتى كادت تتطاير من بين ضلوعه، ولم يعبأ بعينيه إذ دَمَعَتَا وهو في حَضرة ابن خفاجة، لكنه لملم أشلاء روحه ثم اعتدل في جِلسته وهو لا يعلم حتى مَن قَيَّدَهُ واحتجزه؛ أهي العصابة التي اختطفته قرب منزله أم الجهل هو الذي يقيده؟

ثم راح يسأل:

- أيها الشيخ الكريم وقد حدثك الجبل وعقلت عنه ما حدثك، فبالله عليك إلا أخبرتني عن هؤلاء الذين ذكرهم صاحبك ممن لجأ إليه أو توطن به أو مر عليه؛ أيهم أنا؟

أتراني محتملا جُرما ألوذ بصاحبك؟ أم متبتلا على خطى

الشيخ الأكبر طَوَّافًا بالآفاق؟ وبالأمان عليك إلا هَدَّأتَ رَوْعي ؛ فقد جزعتُ أشد الجزع ماذا يريد حين قال لك إن هؤلاء جميعا طوتهم يدى الردى ، أهو تاركهم لتطير بهم ريح النوائب وأرياح المنية تستلُّ أرواحهم وتذرو أجسادَهم تحت أنظار الغربان اللعينة؟

أهذا هو عهد الجبل وأمانه؟

أهكذا عنى صاحبك الأرعن الذي يزهو إذ يُطاول غاربُه أعنانَ السماء؟

أيها الشيخ العارف ألا تنصح لي لأعلم أفي مأمن أنا أم في مهلكة؟

أفي دار حرب أم دار سلام؟

آه ، كم أَوْشَكَ قلبي على الانفطار إذْ سَمِعَ ما حدثك به الجبل وهو أخرس صامت ، هذا الباقي الذي لن يهتز لرحيلنا ولن يأبه لنا إذ تخطفنا يد المنون ، وتُلقي بأجسادنا على جَنَبَاتِهِ تلاحقها هوارب الأرض وجوارح السماء ، لن يبكي علينا عظيم الجِبِلَّة ولن يأسَى ، إنما سيَخْدَع آخرِين ويُؤويهم عنده ، ثم يرمي بهم إلى سالب الأرواح .. ويَظَلُّ هو شامخا يرعى الكواكب ويُسقَى بماء المُزْن كأن ما رأى ولا سَمِع !

أطرق المحتجز مليًّا ، ثم رفع رأسه وهو يصوب نظره إلى نواحي الغار ، ثم قال :

سأحفظ خيرك أيها الجبل ! فقد آويتني فضلا منك أو رُغما عنك لا أدري أيهما كان ، إلا أنني سأعُدُّ ذلك خيرا لك و إحسانا منك ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فأمهِلني حتى يُطلقوا سراحي لأشكر لك حسن جِيرتك وكرم ضيافتك ، فإن هَلَكْتُ هنا فاشهد أني بَلَّغتُك ما أنوي إليه وعرفتك امتناني بما تفضلتَ به عليَّ ، فاعرِفْ ذلك واعذُرْني ولا تخذُلْني يا صاحب الخلق العظيم !

كان المطر قد بدأ يَخِفُّ عن الضاحية ، ليس هناك امرأةٌ أبهى من أرض قد ارتوتْ ماءً وهي تنتظر دفء الشمس المختبئة بين قوافل السُّحُب المُدْبِرة ، أما المحتجز في الغار فقد أَوْشَكَ أن يضيع منه تحديد الوقت ، إلا أنه يعلم على كل حال أن العصابة لم يختطفوه إلا منذ ثلاث ساعات أو أقل بقليل أو ربما أكثر بقليل أيضا ، احتسى بعضَ اللبن وتناول شيئا من الخبز الذي صُنِع من الشعير كما يبدو ..

غِذاء كامل !

يا لِكَرَم هؤلاء المختطِفين ، ما ألطفهم من مُجرمين ، ربما عليَّ أن أردِّد ذلك الاقتباس اللعين الذي يتناقله عزيزٌ وكثير من الناس «إذا أكلت جيدا وشربت جيدا ومارست الرياضة فستموت بصحة جيدة !»

هل يخططون لقتلي بصحة جيدة؟ !

كوميديا ثقيلة !

8

غواية الآلهة

حدثْنا بأسانيد المحبة يا شيخ

تدريجيا بدأ الظلام الذي خلَّفتْهُ السحب الرمادية ينقشع، واستغلت أشعة الشمس الفرصة لتنفذ إلى وجه الأرض به بعد أن خنقها السحاب في أروقة السماء، كانت الأرض منبسطة تصادفها نتوءات قليلة، جبال لا تنوي الرحيل على ما يبدو، صامدةٌ أمام كل التقلبات البشرية، لا تهزُّها وِديان التاريخ إذا فاضت بها الأحداث، ولا تَرْعَبُها نظراتُ الزمن المتوكإ على عصاه قُربَ سفوحها الكريمة ..

أحيانا يتعمَّم الزمن ويتبرنس[4] ويقوم خطيبا يَعِظُ الجبال ويُرَهِّبُها حتى تخضع لسطوته، يحاول أن يظهر أمامها تماما كخطيب مِصْقَعٍ بليغ .. ولكن ثباتها وجسارتها تَفُتُّ من

4 يتعمَّم: يلبس العمامة، ويتبرنس: يلبس البرنس.

عَضُدِهِ، وتوهن عزيمته، فيتولى حَانقا لم يَنَلْ أَرَبًا منها ..
أما حين قابل جبل «المكتسي» فقد أوشك الزمن أن يَنْهَدَّ
وكادت نفسه العجائبية أن تتلاشى ويتخطفها ساعي المَنون،
فأوى إلى غار منه وألقى عصاه فإذا هي حبل واهن، ولَظَّ
بكتفيه على أحد جدران الغار، وراح يتأمل تَحَقُّق ذاتية
الجبل مُقابِلَ التشكُّكِ في ذاتيته ...

الوقت؟

اليوم؟

الليل؟

الشهر؟

العام؟

اللحظة؟

قوالب صوتية لأجزاء مني لا أتحقق: أهي تمثل ذاتي المتكاملة أم ليست إلا تراكيب للحقيقة الكبرى؟

وهل الذي بينها تنوُّعُ اختلافِ أم تنوع تضاد أم ليس بينها أي انفصال بالحقيقة وأنما هي أَوْجُهٌ كثيرة لذات واحدة هي ذاتي؟

من أنا؟

أأعرف كُنْهَ ذاتي أم أُصْغِي السمع إلى هذه الخليقة ما قالت وماذا اقترحت في تصوراتها عني وتعريفها لي؟

أأنا جزء من الخليقة أموت وأحيا محكومًا بما قد حكمت به

الخلائق من التناهي والحسبان؟

أأنا أحد سُعاتِـها وهواربها؟

أأنا من عقلائها أم من عجماواتها؟

أأنا من ثوابتها أم سياراتها؟

أحقيقة ذاتي هي مجرد دوران الأفلاك وتقلبِ الأحوال؟

أأنا مسيرة المتوهج الأعظم منبثقا من ناحية المَشرق سابحا في موج السماء ليرتمي غاطسًا في بحيرة المغرب، كما يَخْذِف الصبيان الحصى في الماء الراكد فيرتعدُ خوفا منهم أو فرحا بزائر مزعج لا يعلم: هل يمكث معه أنيسًا أم يغطس ثانية في طبقات أخرى من الماء؟!

أأنا الكواكب السيارة بتثاقل بعضها وتسارع بعضها؟

أم الأقمار الدائرة بها والنيازك المتربصة بأهاليها تنتظر خطيئاتِهم لتَنْقَضَّ عليهم مادام أنْ لا عَدْلَ معمولا به، ولا مظلوما أُخِذَ له حقه ولا ظالما لاقى جزاءَه؟

كم ذا سمعتُ منهم لعائنَ تَتْرَى تلحقني إذ يقول بعضهم: «إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»، فهل أنا حياتهم أم مماتهم أم أنا الدهر الذي يهلكهم؟

أم أني الواحد المُرَكَّبُ يَحيون بي ويموتون بي ثم أُهْلِكُهم إن شئتُ أن أُهْلِكَهم؟

قد ألَّهُوني إذن وجعلوا مني رَبًّا أُحيِي وأُميت وأُهْلِكُ،

وهم في ذلك يكذبون إذ يقولون لصاحب السلطة «بك نحيا وبك نموت وإليك المصير، أنت من ترزقنا وأنت من تنصرنا وأنت من يُخزينا إذا غضِب ويُكرمنا إذا رضِيَ، وأنت الباقي على عرشك ونحن من نتداول شرف أن نكون رعيتك وخدمك!»

تبًّا!

أأنا أم السلطان من نصبتموه إلهًا أيتها الخليقة؟

أم قد أشركتم الآلهة واتخذتم في كل حال رَبًّا ترغبون إليه وترهبون منه؟

قد جاورتُ عاشقكم الذي بكى لفراق حبيبته، وحلف أنه لا يعرف الحياة بغيرها وأن الأرض خاليةٌ من الناس إذا غضبتْ ونأت، وأنها كلُّ الناس إذا رضِيتْ ودَنَتْ، قد رأيتُه ينشط لفعل الخير إذا ابتسمت له أو ضربت له موعدا، ورأيته يكتئب وينعزل عن الخَلق إذا هجرَتْهُ، وتضِيق عليه الأرض بما رَحُبتْ إذا اتخذتْ عاشقا غيره، وكم ذروتُ من تراب على هياكل العاشقين إذ ماتوا من الهوى، أأنا رَبُّ هذا العاشق أم اتخذ حبيبتَه رَبًّا ونسِيَ السلطان الذي يصفق لقدومه ويمشي في موكبه لينال منه مالا أو منصبا، فلو صافحه لظن أنه دخل جنةَ خُلْدٍ ومُلْكٍ لا يبلى؟!

تَعْسًا لك أيتها الخليقة الهائمة بين الأرباب!

كم اتخذتِ رَبًّا وكم نافقتِ في إيمانك!

أما رأيتِ كيف أُهلِكُ السلطان وأدفنه وأضحك عليه، ولو شئتُ لضحكتُ عليه وهو حي فأرُدُّه إلى أرذل العمر وأجعل منه مَسخرة للصبيان؟

أما رأيتِ أيتها الخليقة كيف أنزع من قلوبكم مَهابته فترموه بالحجارة وترجموه بالكلمات حتى يتهاوى مُلْكُه وتتركه خليلتُه ليلقى مصيره المُخزي، ثم أغيبه في طياتي، ثم لا تذكروه بعد ذلك إلا في نكتة يسخر بها قاصُّكم وقصيدة يُقْذِع بها شاعركم؟

أما رأيتِ أيتها الخليقة كيف أُسْقِطه مِن سماء المُلْك إلى حضيض المَسخرة؟!

وأنتَ أيها العاشق الجبان، كيف نسيتَ حبيبتك التي صَحِبْتَها بضعَ سنين ثم تركتَها لغيرةٍ عابرة أو تَوَهُّج غَضَبٍ عارم، أو تركتَها لطالب آخر يبني بها عشه بينما أنتَ تتسكعُ في أزقة القلوب المهجورة؟ على نهج أسلافٍ لك ودعوا قوافل حبيباتهم ثم وقفوا على الأطلال يتباكون ويستبكون وكأنهم لا يطيقون البوح بالحب إلا للديار، أهم يعشقون الديار أم من تسكن الديار؟

أنا سمعت شيخك أيها الجبل حين قال:

أمُرُّ على الديار ديار ليلى ❖ أُقَبِّل ذا الجدارَ وذا الجِدارَا

وما حُبُّ الديار شغفْنَ قلبي ❖ ولكن حُبُّ مَن سكن الدِّيارَا

أتراه يُقَبِّلُ الجدران ولا يُقَبِّل النسوان؟

أي جُبْنٍ فيه إذ ترك ليلاه تظعن مع الظاعنين، ثم هو يَبْرُزُ ليُمارِسَ الحُبَّ المزعوم مع دار ليلى؟!

أهذا منتهى الرجولة أم منتهى الجُبْن؟

تبا لهذا العشق الذي تكتمونه عن المرأة ثم تظهرونه لحجارة البيت!

أيُّ إلهٍ هذا الذي تخافون أن تصارحوه بمحبتكم، وتتخذون بَدَلَهُ آلهة الحجارة!

وما أرى في ذاتي التي لا أدرك ماهيَّتها شيئا يَليق بمرتبة الألوهية، فأنا الجاهل بنفسي المحدود بالحسبان لا أزعم أني إلهٌ، فكيف تتخذوني إلها وقد أثقلني نفاقكم فأويت إلى الغار ولَطَّخْتُ بكَتِفَيَّ على جداره!

أيُّ إلهٍ أنا!

غَدْرُ الزمان..

نوائب الدهر..

فجائع الليالي والأيام..

ما تركتم من قاموس المَغْر كلمة إلا وألحقتموها بي وألصقتموها بجانبي..

أتعبدون إلهكم بالشتيمة والنكران؟ وحق الإله أن تتحببوا إليه بالحُسْنِ كما تحبب إليكم بالحسنى، أما علمتم أن البلاء النازل إنما هو في لُبِّ الحقيقة نعيم هاطل، وأن المنع

عين المنح؟

واهتزَّ الجبل لهذه الكلمة؛ بينما كان المحتجز في الغار خاشعا في حديث الزمان الذي نطق بعد طول صمت، ثم سمع صوت ثلاثة أقدام تُسحب اثنان منها والثالثة تقرع الأرض قرعا لطيفا، تنحنح صاحب الأقدام الثلاثة وألقى التحية ثم قال:

- «وأن المنع عين المَنح»، ما بعثني من سُباتي إلا هذه الكلمة فبَعد إِذْنِكم أيُّها الصَّحْبُ هل عرفتموني؟

كان الشاب المحتجز كثير المطالعة، فقلب الأوراق وأنعم نظره في الصفحات فإذا بالحِبْر لم يَجِفَّ بعدُ وإذا بالأسطر تُكْتَبُ أُنُفًا، وقرأ اسم الشيخ ذي الأقدام الثلاثة ثم رفع رأسه إليه وقال:

- مرحبا بالشيخ الأكبر مولانا ابن عربي الحاتمي الأندلسي!

- رحَّبَتْ بك الملائكة أيها الفتى! اُدْنُ دنا منك الخير، وأَسْمِعْ تُسْمَعْ! وسَلْ تُعْطَ.

فتغير وجه الشاب حَذَرًا مما يقول الشيخ، وكأنه لم ينقطع من موعظة الدهر في الربوبية حتى أتاه من يزعمها لنفسه وأنه المانح الخير لمن دنا منه والسامع لمن دعاه والمُعطي لمن سأله، فردَّ الشاب بصوت فيه كثير من الأدب وقليل من الإنكار:

- على رِسْلك يا شيخنا ومولانا، قد كنت أسمع

قبلك حديث الزمان وقد كان يتهكم بهذه الخليقة التي تؤلِّهُ السلطان والنسوان، فكيف تضفي على نفسك حلل الربوبية بهذا الكلام؟!

ابتسم الشيخ وكأنه سمع هذا التخشُّعَ ألف مرة من قبل، فعقب قائلا:

- رحمك الله يا بني، أعن يقين فهمت كلامي الآنف أم عن ظن؟!

- على ظن بطبيعة الحال، وكيف لي أن أجزم بشيء إذا ظهر كثيره فقد خفي منه ولا بد جزءٌ آخر.

- تماما -قال الشيخ الأكبر- فما دام أنك تدرك أن للكلام ظاهرا وخفيًّا، وأنه لا يمكن لأحد من الخليقة أن يحكم على ما يخفى منه عنه، فكيف حكمتَ عليَّ واتَّهمْتَني بِتُهمة لو أُلْقِيَتْ على الجِبال لانهدَّتْ وهَوَتْ؟!

- وهل تنهد الجبال من كلام الخليقة؟

- أما سمعت يا بني قول الرُّنْدِيِّ أحدِ أبناء بَلْدَتِنا إذ قال:

دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له ... هَوَى له أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهلانُ

فأنا أسحب كلامي يا مولانا ولكن أبقي على مساءلتي.

- سكت الشيخ الأكبر برهةً ونكتَ بعصاه في التراب، ثم قال مجاوبا على ما سأله الشاب:

- إن المعانيَ لتزدحم في النفس وتكاد أن لا تتناهى، غير أن الألفاظ محدودة محسوبة منتهية، ولا يمكن أن يقابل

الكثير بالقليـل، ولا أن ينحصر اللامتناهي في المتناهي إلا في أَضْـرُبٍ قليلـة مـن وجـوه التعبير، أرأيتَ هـذا اللبن الذي بين يديك وهـذا الخبز؟

- نعم يا مولانا، واعذرني أنْ لم أدْعُكَ إلى تناول شيء، فعلى الرحب والسعة.

- بوركتَ يا ولدي .. فأخبرني إن قلتُ لك أوقال لك أي زائر من زُوَّارِك إني أريد شرب اللبن وأكل الخبز، فهل يخطر ببالك مقدار ما نشتهيه ونصاب ما نطلبه على وجه الدقة؟

- كلا، ولكني أُخمِّـن في نفسي قُراب ما يشربه الرجل ويأكلـه في العادة.

- أحسنتَ، إن هـو إلا تخمين إذن وتقريـب، فقـد رأيـت يـا بـني كيف ضاقت اللغة عن احتواء المعانـي في أتفه الأمور الـتي نفعلهـا يوميا، فكيف تستوعب أو كيف نريد من اللغة أن تستوعب زَخَمَ المعاني المرتطمة في شطآن نفوسنا؟

ولما آنَسَ الشيخُ الأكبر مِن هذا المُحتجَزِ فَهْمًا و رِضاءً لما يقول استأنف شارحا:

- سأخبرك بأمر حتى يزول الرَّانُ عـن قلبك يا بُنيَّ، ولا يـزول الـران إلا بقـوة داخليـة منك وقـوة خارجيـة أخرى، فأما قوتك الداخليـة فهـي تحرير إرادتـك الإنسانية بحيث لا تقيدهـا بقيـد الغضب، ولا بقيـد الجاهلية والتقليد، ولا بقيد الأهـواء، لأنـك إذا قبعـتَ تحت نـار غضبـك فلن تسمُوَ إلى

غايتك، وإذا رضِيتَ بتقليد الأشياخ والخوف من أهلك وعشيرتك فستظَلُّ تابعا لمن هم أجهل منك، وإن تتبعتَ شهواتِ نفسك فستبقى منحدرا في وديان العماية حتى تنقلب في ذهنك قواعد المنطق.

- الله الله ... والقوى الخارجية هي ماذا يا مولانا؟

- إذا سلمتْ إرادتُك الذاتية عن قيود الجهل فقد صِرْتَ حُرًّا في سماع ما حولك من أفكار ونظريات وعقائد واجتهادات، وما دمت حُرًّا ذاتيا فإن عقلك سيعمل على سجيته دون تعطيل، وسيتلقى الفكرة ويفرز بين صحيحها وغلطها، وسيفرق بين الجدل المنطقي وبين الشغب والتمويه، وهذا الذي أتلوه عليك إنما هو من بركات ما تلاه صانع الكون في كتاب الإنسانية.

- أيها تقصد يا شيخنا؟

- «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه»، فقد وصفهم بِحُرِّيَّة الإرادة الذاتية وحرية الاختيار، وذكر أنهم ولا بد أن سيتبعون الحق لأن عقولهم كانت حرة في سماع الفكرة غير مكرهة ولا مكممة بعصبة الأهواء والتقليد .. لكن دعني أعود إلى حكاية المعاني والألفاظ.

- نعم يا مولانا، ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا.

- لعلك سمعت حين درست وأنت دارس؛ عبارة

الجاحظ حين قال: «المعاني مطروحة في الطريق»؟

- أجل وأحفظها وأحبها، وإنما حببني في الجاحظ تعظيم ابن حزم وابن خلدون له، ولا يكاد يعرف الناس عنه ما يلائم في هذه الضواحي إلا أنه دميم الخلقة عارف بأخبار البخلاء.

- إنما يعرف الناس ما يلائم طباعهم ويوائم ما يردون فحسب، ولا يعرفون عن شيخ العربية أنه بلغ الإمامة في الرواية والدراية والغواية وشرف الأرومة.

- الغواية والشرف؟! رد الشاب متعجبا وربما ساخرا من هذين النقيضين!

فقال الشيخ الأكبر:

- هذا ما أريده بالضبط، أن تتعجب من ضآلة اللغة وتسخر من جهلك بما وراء الألفاظ من كنوز المعاني.

- وكأنك -رحم الله قلبك- يا مولانا تريد أن تسخر مني وتُثْبِتَني في ركن الجهالة!

- ما أريد أن أُثْبِتَك في ركن الجهالة كلا، غير أنِّي أخاطبك بصريح المعنى لتدرك منزلتك، ومن ثم تحدد الخطوة التالية في طريق التعلم، فإنما العلم بالتعلم يا بني والدرج بالتدرج لا بالقفز، ولو رُمْتَ تحصيل المَعارف جُملةً لذهبتْ عنك جُملةً، ولكن عليك أن تعرف درجتك فيها لتنير عليك الدرجة التي تليها.

- عَقِلْتُ عنك هذا يا إمام، ولكنك أغويتني باستطراداتك !

تبسم الشيخ وقد وقعت منه كلمة الإغواء موقعا جميلا، فرد قائلا :

- أرأيت كيف أغويتك بالاستطراد الصغير، فماذا لو غمك الاستطراد الكبير؟ إنما أردتَّ أن أتمثل لك في صورة الجاحظ لتدرك طريقته العجيبة في السرد والشرح، لذا عليك حين تشرع في قراءة كتب الأشياخ الكبار ألا تحسب نفسك إلا بين يدي سَحَرة، فَانْجُ بعقلك حين تقوم ذاك المقام يا فتى !

- فهل أنجو هاربا إذن؟

- بل تنجو عاقلا !

- ما فهمتُك الآن !

- لقد غوتْ بك الألفاظ يا بني !

وضحك الشيخ الأكبر ..

- أفسحرٌ هذا يا مولانا؟ ! سأل الشابُّ جليسَهُ.

- لطف الله بقلبك يا بني ! أخبرتك أنك ستنجو عاقلا، والعقل هو التقييد ...

لكن الشاب المحتجز اضطرب وباغتَهُ الشك من نقائض الشيخ فقال مقاطعا :

- العقل هو التقييد ! وأنت قلت لي آنفا إنه يجب أن تحرر ذاتك من التقييد؟ !

فتنهـد الشـيخ ثـم خطـف ابتسـامة أقصـر مـن تنهيدتـه، وقـال:

- لقـد غـوت بـك الألفـاظ يـا بـني ! ولـو صفـا ذهنـك منذ البدايـة لتذكـرتَ إنـي بنيتُ كلامي كله على العبارة التي كان الزمن يقتبسها في حديثه لك إذ قال «المنع عين المنح»، فكيف غابت عنك هذه النقيضة أيها الشـاب اليقظ؟! لا مؤاخذة يا بـني، إنـك لن تستطيع معي صـبرا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبْرا.

ثـم أردف الشـيخ الأكبر قائـلا وهـو يجـول بنظـره في أنحـاء الغـار، أمَّا في الخـارج فتـكاد الشـمس تسيطر علـى مَضارب الأرض إلا زَخّـاتٍ مِـن دَثٍّ مُتقطِّـع يُداعـب خيـوط النـور الذهـبيِّ الـذي ينسـاب مـن السـماء كما تنسـاب قطرات الماء الشلال ... كان الجو مبهجا للغاية لولا هذا السِّحر الذي جاء بـه الأشياخ إلى حيث احتُجِز الشـاب المسكين في وَهـدة من خلاء!

قال ابن عربي:

- أرى أنـك لم تقـدر علـى اسـتيعاب مـا أقولـه مـع أنـي أحـاول اسـتعمال أوضـح التعابـير.

رد الشـاب وقـد مسـه جـزع مـن هـذا الـكلام الـذي سمعه للتو:

- بل أنا أفهمك، وأظنُّك يا شيخنا تختبر فهمي؟

انفتحت عَيْنَا الشيخ أكثر من ذي قبل وكأنه وصل إلى ما يريد، فقال:

- بل أنا أختبر لسان حالك لا مقالك.

- كيف .. كيف؟!

- أنت الآن قد جزعتَ من كلامي وظننت أني أستفزُّك؟

- آه تقريبا ... نعم!

- لا تظن أني أستفزك، بل كن على يقين من ذلك!

- وهل يستفز الشيخُ طالبَهُ؟

- أجل يا بني! حتى يعرف مقدار قوته الغضبية ويعالجها ليخفف من حدتها، لأن الغضب يمنع عنك كثيرا من الفهم.

- لقد ذكرت لي هذا سابقا.

- ولكنك نسيت يا بني!

- وما أنسانِيهِ إلا الشيطان أن أذكره!

- أتدري ما هو شيطانك يا بُني؟

- وهل الشياطين أصناف كثر؟

- شيطان الغضب نفسه هو الذي أنساك بضع كلمات حدثتك بها سابقا، وهو الذي سيمنعك من تحصيل المَعارف وامتثالِ الأدب!

- عَقِلْتُ عنك يا مولانا، فهلا رجعتَ بي إلى حكاية المعاني والألفاظ، لأني أكاد أضيع من سرعة تصريفك للكلام!

- أجل يا بني ، لقد قطعتَ كلامي حين ذكرتك أن العقل هو التقييد ، وإنما هو تقييد النفس الحيوانية أن ترتكب ما يعود بالضرر على الجزء النوراني منك ، فإذا لم تقيد شهوتك وغضبك وجهالتك هَوَتْ بك الأوصاف الحيوانية إلى واد سحيق ، ولا يمنعك عن هذا الهوى إلا العقل المعصوم.

- أو نقول عن العقل إنه معصوم؟ أم إنها تجاوزات اللغة؟

بدا الشاب المحتجز في الجبل قد تفاعل مع الشيخ الأكبر وتفتق ذهنه قليلا بصورة أفضل مما كان عليه في بداية الحديث ، لذا ابتسم الشيخ وقال مجيبا :

- إنما نقول بعصمة العقل لا عصمة الذات الإنسانية ، فالعقل يعمل وفق قوانين لا تنخرم ولا يتخلف عنها مطلقا ، فهو القوة المنطقية التي لو تُرِكتْ لكان الناس ملائكة يمشون في الأرض ، ولكن هناك قوى تزاحمها فتمنع عنها وصول الحق حتى لا تدركه أو تمنعها من تفعيل المنطق فيتعطل الإنسان عن إقامة العدل في نفسه وغيره ، وهنا فرق بيننا وبين الملائكة ؛ أننا جملة قِوًى ذهنية وجسدية متزاحمة ، وأما هم فقوة عقلية صافية لذا كانت العصمة ثابتة لهم إضافة إلى ذاتهم الكاملة ، وأما نحن فالعصمة مضافة إلى قوتنا العقلية فقط لأنها هي القوى الملائكية نفسها ، لكن زاحمتْها طبائع الأرض ..

فهمس ابن خفاجة :

فينا وفيك طبيعةٌ أرضيَّةٌ ❖ تَهوِي بنا أبدا لِشَرٍّ قرارِ

كان ابن عربي يواصل حديثه قائلا :

- لذا ترانا نسيئ ونحسن، ونغضب ونرضى، ونحب وننسى ...

- فمن أحبَّ ولم ينسَ يا مولانا؟

- ذاك الحب الملائكي يا بني!

- وهل يتاح لنا الحب الملائكي؟

- بعض الحب الملائكي إيمان وبعضه مروءة، فلا يتاح لنا وصف الإيمان إلا بجزء منه، ولا يتاح لنا وصف المروءة والرجولة إلا بجزء آخرَ منه أيضا.

- فلا مروءة لمن ليس له شيء منه؟

- ولا إيمان! لا إيمان لمن لا حُبَّ ملائكيًّا له يا بني!

- رحم الله قلبك يا شيخنا، أرأيت الأرض كيف اهتزَّتْ آنفا من وَكْفِ المطر؟ فوالله إن قلبي قد اهتزَّ من وَكْفِ بيانك وبلاغتك أيها الشيخ الأكبر.

- لا تهتز القلوب إلا للكلام الصادق، ولا يكون الكلام صادقا إلا إذا صدقه العمل.

- كيف ذلك يا شيخ؟

- إذا كان كلامك حسنا وفعلك قبيحا لم يأبَهْ الناس لموعظتك ونصيحتك، لقد حُدِّثْنا عن الخطيب البغدادي

أنه قال: أخبرنا أبو الفرج عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان بن يزيد بن وكينة بن عبد الله التميمي قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول: «هَتَفَ العِلمُ بالعَمل فإن أجابَهُ و إلا ارتحل»[5] .

- بالله عليك لقد أطربتَني بهذا الإسناد العجيب؛ فهل أرويه عنك؟

- بِسرورٍ يا ولدي، ولكن قل: حدثني ابن عربي مشافهة في موضع بين الليل والنهار وساعة بين البر والبحر!

- سمعا وطاعة أيها الشيخ الأكبر.. ولكنْ.. أراك ترمُقُ بعينك إلى ناحية الغار، وكأنك تبصر شيئا ما؟

- سأصمت الآن يا بني، فأنا وإياك بحضرة شيخ المذهب!

5 رواه الخطيب البغدادي.

٩

غواية الشيخين

«كان يُقَبِّلُ وهو صائم»

حديث شريف

تلفت المحتجز في الغار يمنة حيث كان يَخْزُر الشيخ الأكبر، غير أنه لم يتبصر شيئا .. فأعاد النظر إلى الشيخ فإذا به لا يزال مُنيبًا بوجهه إلى تلك الناحية، ثم حَنَّ الجبل كأنه صوت الناقة الباكية تبحث عن حُوَارها ولها سَجير تنفطر له القلوب، فقال الشاب سائلا :

- أمِنْ زائر هنا؟ فأهلا بالضيف.

ثم تسلل نورٌ من جهة المشرق حيث مدخل الغار، فإذا برجل معتدل القامة وضَّاء المُحيَّا لائح الهيبة، قد طأطأ الأشياخ رؤوسهم تبجيلا له، لكن المحتجز راح يتأمل ملامحه وأناقة ملبسه وحِدَّةَ نظره في وسامة خِلقته، ألقى الضيف التحية فسارع المحتجز بالرد بأحسنَ منها ثم عقَّب قائلا :

- مرحبا بالوزير أو الأمير، فليست هذه الأُبَّهة إلا لسلطان كريم.

قال الشيخ الأكبر بصوت خافت ليس كذي قيل :

- إي والله يا بني ، إنه الوزير ابن الوزير.

حاول المحتجز أن ينهض لزائرهم ؛ إلا أن قيوده عطَّلتْه من القيام ، ليتذكر أنه مخطوف من قِبَل عصابة منعتْه من التحرك فقيَّدتْه على رأس جبل معزول لا يدري به أحد ولو صاح كل الصياح ..

فلم يَصِحْ ..

بل لملم أشلاءَ غَضَبِهِ ورمى بها إلى زاوية بعيدة من زوايا نفسه حتى لا تظهر أمام جلسائه.

- لا عليك يا سيدي ! إني لجافُّ المَدامع ، ولو أقدر لذَرَفتُها فرحًا بلقائكم !

فقال الشيخ الأكبر وقد طرِب لِمَا استفتح به الزائر ذو الهيبة :

- الله الله ! إن مدامع القلب أشفَى للروح من مَدامع العين يا مولانا ، أهلا وسهلا بالوزير ابن الوزير.

- أهلا بك ومرحبا يا صاحبي .. أجاب ذو الهيبة الزائر.

- أهلا وجَبَلا -عقَّب المحتجز- ولو كُنَّا في منبطح الأرض لقلنا أهلا وسهلا ، أليس هكذا الأمر أيها الشيخ الأكبر أم أنها أراجيف اللغة ؟

فتبسم الزائر ضاحكا من قوله ، وقد أجال بنظره بين الجماعة :

- كأني بكم قد فرغتم للتو من معركة في اللغويات !

تعجب الشاب المحتجز من كلام الزائر وظن أنه ليس وزيرا بل قائد عسكري له خبرة في إدارة المعارك والحروب، فقال مستغربا حديث زائره الغريب :

- معركة يا ذا الهيبة؟ !

- أو ليس ارتطام الأفكار في مضمار الخطاب عِراكًا يا ولدي؟ قال الشيخ الأكبر.

فأدرك الشاب أنه وقع في فخ اللغة الرهيب، وبدا له أن يضع يديه على التراب، ففعل ثم قال بخضوع واندهاش :

- سَلَّمتُ سَلَّمتُ !

واتخذ الزائر مقعدا له بين الجلساء واعتدل في جِلسته ؛ بينما راح الشيخ الأكبر يحدث صاحبه المحتجز فقال وقد أومأ برأسه إلى ذي الهيبة كأنه يطلب الإذن :

- آه لو سَلَّمتَ يا بُنيَّ حق التسليم، لخضع لك الجبل وكان سهلا بين يديك.

- أهو هذا تأويل التحية بينكما آنفا أيها الشيخ الأكبر؟

- إنما التأويل لأهل التسليم، فإن كنتَ منهم أقامك مَقام التأويل.

ثم التفت الشاب المحتجز إلى ذي الهيبة وهو يسأل الشيخ الأكبر قائلا :

- فهلا عَرَفنا صاحبَ الوزارة يا شيخ؟

فأجابه الزائر بدلا عن الشيخ ، قال :

أنا الشمس في جو السماء منيرةٌ ❖ ولكنَّ عَيبي أنَّ مَطلعِيَ الغَربُ
ولو أنَّني في جانب الشرق طالعٌ ❖ لَجَدَّ على ما ضاع مِن ذِكْرِيَ النَّهْبُ

قال الشاب المحتجز وقد أعجبه البيتان شِعرًا ولكن تذمَّر منها تورُّعًا ، لكنه عرف زائره ذا الهيبة فأشرق وجهه :

- مولانا وسيدنا الوزير ابن الوزير ، يا ابن حزم إنا لك بالأشواق.

قال الشيخ الأكبر وقد بدا له أن يستفتح الحديث :

- يا مولانا وشيخ المذهب كيف حَدُّ الحُبِّ عند الأصحاب ؟

لم يكن المحتجز يعلم أن الأشياخ يتحدثون في الحب ، فراغ إلى فكرهِ وأردف سؤال ابن عربي بسؤال آخر فقال :

- بالله عليك يا أبا محمد[6] إلا أخبرتنا عن حالك مع نُعْم[7] في متاهات القصر بقرطبة.

اشتدت وطأة هذا السؤال على ابن حزم وابن عربي كليهما ، بينما كان شاعر الجبل يترقب الجواب وبين أنامله قَلَمٌ وعلى رُكبته مِسندة وقرطاس ، يستعد لكتابة مطلع قصيدة غزلية ينسجها على منوال ما سيقوله الأشياخ ... أما الشيخ الأكبر فأراد أن ينهر الشاب لجرأته في السؤال ، غير أن ابن حزم أشار له أن هَوِّنْ عليك ، ثم قال وهو يحاول أن

6 كنية ابن حزم.

7 نعم -بضم النون وتسكين العين- جارية عشقها ابن حزم في شبابه.

يستجمع شَتات ذاته التي فرَّقها السؤالان :

- أتدري يا بني ما حد الحب؟

- قـد سـألك عنـه الشـيخ الأكـبر ونحـن ننتظـر رأيـك وتعريفـك لـه.

قال ابن حزم :

- فما حد السرقة يا بني؟

تبسـم الشـيخ الأكـبر بعـد غَضبة غَضِبَها ، وعلـم أن الفتى سيحوطه الإشكال من كلام شيخ المذهب ، ثم قال المحتجز وفي ملامحه كثير من الحيرة والالتباس :

- إنما سألك عن حد الحب بمعنى ماهيته وتعريفه ، وأما حدة السرقة فيعنى بها الجزاء الذي وضعه قانون الشريعة على من سرق.

- أرى عليك كثيرا من الحيرة والالتباس يا بني ! قال ابن حزم.

- بالله نعم يا مولانا !

قال ابن خفاجة وقد قطع صمته الطويل بصوت خافت تاليًا هذا البيت :

السيف أصدق أنباءً من الكُتُبِ ❖ في حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللعِبِ

فسُقِطَ في يَدَيْ الشاب وأدرك أنه في ورطة الألفاظ، ثم أراد أن يستعيد عافيته الذهنية ويواصل التحدي فقال :

- حد الحب هو التعريف به يا مولانا أليس كذلك؟ أما حد السرقة فهو العقاب المترتب عليها ، أما حد السيف فهو طرفه القاطع ، وأما الحد بين الأشياء فهو الفاصل بينها ، فهذه المعاني الأربعة شملها لفظ واحد لا يكاد يتجاوز الحرفين إلا بقليل.

قال الشيخ الأكبر وهو يحرك رأسه ببطء :

- ها قد عرفتَ أن اللغة تضيق بالمعاني ولا تستوعبها إلا بأضْرُبٍ من التأويل يا بني !

رد ابن حزم :

- إنما نأخذ الألفاظ على ظاهرها فحسب !

قال المحتجز متسائلا :

- أليس هذا غاية السطحية في فهم المعاني التي قال شيخنا الأكبر إنها أوسع من الألفاظ!

وبعد بُرهةٍ غير قليلة أجاب ابن حزم :

- لو تجاوزنا الظواهر لوقعْنا في متاهة الظن الآثم.

- أليس التأويل هو تجاوُزَ الظاهر يا مولانا ويا شيخنا؟

قال ابن حزم :

- التأويل هو الأخذ بما تيقناه من المعاني أيا كانت وجهتها.

وقال ابن عربي :

- التأويل هو الكشف عن الحقيقة لصاحب التسليم.

فاعترض الشاب المحتجز وقال :

- كلاكما على طرفين نقيض أيها السَّيِّدان!

فضحك الشيخ الأكبر حتى بَدَتْ نواجذه، ثم قال:

- رجعْنا بك إلى الحديث الأول حين كان الزمن يحادثك ويقول إن المنع عين المنح!

- لا أظنك تقصد أن كلامك وكلام أبي محمد يحتملان المعنى ذاته؟

قال ابن حزم:

- لا تظن يا بني! بل كن على يقين أن كلامي هو عين كلام صاحبنا الحاتمي!

قال الشاب المحتجز وهو يتظاهر بالفهم والاستيعاب:

- فما حد الحب يا أبا محمد؟

حينها شَرَعَتْ أقلام القدر تَخُطُّ أولَ دستور في الغراميات، فقال ابن حزم:

- الذي أذهب إليه -يا ولدي- أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لكن أوَّلَهُ هَزْل وآخِرَهُ جِدٌّ، دَقَّتْ مَعانيهِ لجَلالتها عن أن توصف، فلا تُدْرَك حقيقتُها إلا بالمعاناة[8].

فاهتز الشيخ الأكبر إعجابا، وراح ابن خفاجة يُسْمِعُهم صوتَ حفيف القلم، بينما واصل المحتجز سؤاله فقال:

- أو يحب أحدنا فلا يؤثم؟

---

8 من «طوق الحمامة».

- القلوب بيد خَلَّاقها، أفتُؤْثَمُ لو عَطِشْتَ؟

- كلا أبدا، ولكن لمَ تقيس الحُبَّ بالعطش وأنت من عارَكْتَ جميعَ الفقهاء في خمسة قرون حتى تنكر القياس؟

قال ابن حزم:

- سأزيل عنك الحيرة والالتباس الواقِعَين في ذهنك وقوعَهما في مذاهب أهل الرأي والقياس[9]، إن القضايا الواقعة في باب واحد لا قياس بينها، وحتى أوضح لك ذلك أكثر تذكر مثلا أن استواء الخليقة في الحاجة إلى ما يُغَذِّيها لا يُسمى قياسا، إنما هو قانون طبيعيٌّ عامٌّ على جميع أفرادها، فلا يمكننا أن نزعم أن زَيْدًا يحتاج إلى الغذاء قياسا على حاجة خالدٍ له، لأن هذا يُدْعَى التساويَ في القانون العام لا القياس.

- فهل تدَّعي أن الحاجة إلى الحب كالحاجة إلى الماء يا مولانا؟

- لا مطلقا، بل الحاجة إلى الحب هي الحاجة إلى الماء نفسها.

- أليست هذه مُغالاة يا مولانا؟

هنا تدخل ابن عربي فقال:

- بل هذا الكشف، فمن لم تُكشف له حقيقة الحب بالمعاناة عَجِز عن إدراك ما يقوله شيخ المذهب .. وبقِيَ ظَمآنَ.

---

9 «الإعراب عن الحيرة والالتباس الواقعين في مذاهب أهل الرأي والقياس»، أحد مؤلفات ابن حزم الأندلسي.

خَفَّتْ حدة الشمس خارج الغار وازداد ابتهاج الطبيعة بين غيثٍ روى الأرض العطشى وضياءٍ مَنَحَها دِفْءًا حافلا، صوَّبَ المحتجز في الغار بصره إلى الخارج وقد داهمه الشوق إلى أهله وولده خزيمة، وهو يحلل كلام الأشياخ عن الحب، ولم يكن غَمْضُ أشفاره متتاليا بسرعة، بل كان بطيءَ الإغماض سابحا في التفكير، لم تنعشه رائحة اللبن وقد أنتجتْهُ أغنامٍ لا تعرف غذاءَها وعَلَفَها إلا من نجوم الأرض وأعشابها، لَبَنٌ يخرج من بين دم وفَرْثٍ سائغا للشاربين، قال ابن عربي:

- أفرأيتَ يا بني هذا اللبن! كيف يخرج ؛ فإن الحب يخرج من بين الجسد والروح سائغا للعاشقين.

- هذه مقالة الأجساد والأرواح يا شيخنا -قال الشاب وأضاف- فما حقيقة هذه المقالة؟

- لن يَقْدِرَ اللفظُ على بيان شيء منها، إنما تُدْرِكُ ذلك بالمعاناة كما قال أبو محمد.

تحَّير الشاب المحتجز وكأن الغموض زاد ولم ينقص، وقطَّب بحاجبيه مُجيلا نظره بين هذين الشيخين لعله يقرأ من العيون ما ينوء بحمله أولو العصبة من الألفاظ، وبعد تَرَيُّثٍ غير قليل طرح سؤاله متوجسا وكأن الزمن لا يعني له شيئا:

- وهل في طاقتنا معاناة تلك الحقيقة بين الأرواح والأجساد؟

- أذو زوجة أنت يا ولدي؟ سأله ابن عربي.

- نعم، وأنا لها بالأشواق.

- أفرأيتَ ما يكون بين القبلة الأولى والرعشة الأخيرة؟

- بالله عليك أنا شاب خفيف النفس، ولو تركتَ لي مجال القول هنا لما أنهيت الكلام، ولكن ممارسة الحب -يا سيدي- مَذاقٌ من حياة أخرى أو مذاق من الموت، ولا أدري تماما أهو الفناء ..

أم السُّكْر ..

أم الضياع في عالم مختلط بين الحقيقة والخيال ..

أم أنه .. والله لا أدري أيُّ التعابير أنسُب في وصف ساعة الحب بين الحبيبين ..

ذاك الغرام ..

ذاك الهيام ..

ذاك الفناء ..

ذاك الإغماء ..

ذاك الإغواء ..

ذاك الإغراء ..

ذاك الارتقاء ..

ذاك الجلال ..

تلك الحرية الشامخة ..

تلك الحقيقة ..

مكاشفة الحق ..

لو أردتُّ أن أصف قُبلة عشق واحدة بين الحبيبين لما كان لي أن أصل باللفظ إلى ما وصل إليه الشعور يا شيخنا ..

قال ابن عربي وقد أعجبَتْه سَكْرة الشاب :

- تلك هي المعاناة يا ولدي ... ولذا كانت ممارسة الحب علامة للعقل عند الحكماء.

قال ابن حزم :

- أتدري يا صاح ! كنتُ أدَّعِي -ولا أزال أقول- إن قُبلة واحدة من نُعْمٍ لهي أغلى من خلود في الدنيا بكل مَلذَّاتها وأفراحها ..

- الله الله يا أبا محمد ! ومثلك يقول هذا وأنت شيخ المذهب وسيد الطائفة ؟ !

- وما كان شيخَ المذهب إلا لأنه عاين الحُبَّ وعاناه ، رد الشيخ الأكبر.

قال ابن حزم :

- ليس الحب بمنكر في الشريعة ولا محظور في الديانة ، إنما القلوب بيد الله[10].

ثم تمطق حروفًا لم يقدر على إخراجها ، فقال له المحتجز :

- فهل نشتهي ما لا نحب؟

- أجل ، ولكن غاية الاشتهاء لا تكون إلا مع الحبيب.

---

10 من "طوق الحمامة».

- فما هو المُشتهِي فينا، العقل أم الحاسة الحيوانية؟

تبسم الزائر ذو الهيبة وفَرَكَ لِحْيَتَهُ لائحًا ببصره إلى هذا الشاب المقيد في وسط الغار، أما ابن عربي فبدا من مَلامحه أنه تعجب من سكوت ابن حزم على سؤال الشاب، مع علمه أنه سريع البديهة حاضر الجواب، فما كان منه إلا أن قال:

- مالك يا مولانا؟

- أرأيت يا صاحبي كيف رجع بنا الفتى بعلم أو بغير علم إلى عبارتك الآنفة عن الحب -رد ابن حزم وأضاف- فقد أخبرتَه أن يخرج بين الجسد والروح سائغا للعاشقين، فهو بسؤاليه الأخيرين كأنه أراد أن يفصِل بين الجسد والروح في رسم ماهية الحب، فما تقول هنا أبِالفصل أم الوصل؟

عقد الشيخ الأكبر حاجبيه واستأخر بصدره قليلا مُحافظا على كثير من رزانته التي تخللتها بعض الحيرة، وبدا لابن حزم أن صاحبه قد أَوْغَل بعيدا في التفكير، فقال له:

- أين طارت بك الفكرة يا صاح؟

رد ابن عربي في أسف واضح:

- والله يا مولانا استذكرتُ ما جاء بعدي من لَغْوِ الفقهاء وكيف وَلَغُوا في عِرضي، وما هو منك يا شيخنا ببعيد .. قد علمت مقالتي يا أبا محمد في العشق الإلهي وكيف جعلوا منها طريقا للفتنة بين العامة والخاصة، وإنما لو فقهوا كلَّ الفقه لَمَا جهلوا كل الجهالة ولما ساء فهمهم لكلام الناس،

ولَعَلِموا أن الأرض الطيبة لا تخرج إلا طيبا ، ولو أخرجت الأرض الطيبة ما ينكرونه لكان لزاما عليهم أن يتريثوا حتى يتحققوا نهج اليقين ، فإن وجدوا خيرا فقد سَلِمُوا وإن وجدوا غيره فلينصحوا وليستروا ، إذ ليس من الحكمة أن نُلْغِيَ مئة مذاق حلو لمذاق واحد مُرّ !

كان الشاب المحتجز قد التفت مباشرة إلى ابن حزم وكأنه يتأهب ليقول شيئا مُهِمًّا كاد أن يقاطع به كلام الشيخ الأكبر، فلما انتهى ابن عربي من حديثه ، قال الشاب :

- وقد ولغوا كثيرا في عِرضك يا أبا محمد ! ورَمَوْك بكل سهم تماما كما فعلوا مع الشيخ الأكبر، فهل من جواب على ألف عام[11] من الجدل الأكبر؟

قال ابن حزم وكأنه لم يفصل بين حسرة ابن عربي وحيرة الشاب :

- ألف عام لا تستوعب الجدل الأكبر يا بني ، إنما يستوعبه عُمْرُ الخليقة كلها ، ومن سخرية الدنيا أن معارك الحقيقة التي تَطاوَلَ بها الزمن قد انحسرت هنا كما انحصر الزمان بطوله في هذا الشيخ اللاّظ بكتفيه على جدار الكهف والجاحظ بعينه كأنه يترصد عَدُوًّا أو يتربص بنا إحدى الحُسْنَيَيْنِ ...

- إحدى الحُسْنَيَيْن؟ سأل الشاب متعجِّبًا.

- أما إحداهما أنْ نتحرر منه لتعرف الخليقة مدى سطوته

11 ابن حزم خلال ألف عام» عنوان كتاب لان عقيل الظاهري يرصد فيه ما كُتب عن ابن حزم.

وجبروته عليها، وحينها لن تكون له هيبة في قلوبهم، وحين تسقط هيبة الدهر فلن يتخذه واحدٌ من الخَلق إلهًا يخشاه ويرغب إليه، وأما أُخْراهما فأن يَطْوِيَنا في صفحاته كما طوى غيرَنا وإذَّاك ستكون صفحتنا خَالدةً في كتاب الدهر العظيم، وسيَمُرُّ عليها قارئًا كل من يطالع هذا الكتاب، وسيجد الدهر نفسه منطويا على من يُخْزِيهِ ولن يقول أحد بعد ذلك «إنما نموت ونحيا وما يهلكنا إلاَ الدهر».

- الله الله! .. قال ابن خفاجة وهو يستعد لنظم هذا الكلام، لكنه قبل ذلك سجد سجدة ثم رفع رأسه وقال حين رأى تعجُّبَ الشاب:

- هذه سجدة الشِّعْر كما لكم سجدة التلاوة! لكن ذَرُوني أُسمِعْكُم شيئًا مما نظمتموه أُعيد نثره على مسامعكم؟

- ستُغوينا إذَن بينما تطرب أنت؟ قال أحدهم ..

فقال ابن خفاجةَ كاسرًا جمود فلسفتهم بموسيقى الشِّعر:

عوالي الشَّرْقِ تَبغيني ❖ رفيقًا للمساكينِ

شَجِيَّ القلب مهمومًا ❖ ومشغولَ الأحايين

طَروقَ البال ذا سِنَةٍ ❖ وأكبالٍ تُماديني

لِعَيْنٍ شَابها سُكُرٌ ❖ هواها قلبُ مجنون

فزاد السُّكْرُ في خَبَلٍ ❖ وظلَّ العقلُ يَبكيني

حبيـبي زاده شَـرَفًا ❖ طِلابـي الحَـيْنَ في الحِـين

عسـاه يرتجـي سَـرَفًا ❖ لإسـرافي وتخميـني

ويبغـي عندنـا كَلَفًا ❖ وشـوقًا ذا تفانـين

ومـا أزداد في عِشْـقٍ ❖ سـوى أنـي لَـذو دِيـن

وأرقَـى كلمـا أرقَـى ❖ ويبعُـدُ في الميادين

فأذرِفُ هاطلا حَرًّا ❖ كَغَوْرِ العَضْبِ في اللين

ودمـع الحِـبِّ مقـرورٌ ❖ إذا جـاء يُردِّيـني

وتلـك الفتنـة الكـبرى ❖ فعفـوًا كلَّ مفتـون

صبيـحُ الوجـه في خُمُـر ❖ سـوادٍ، هـل تُخليـني

بـدتْ في العـين فتنتُـهُ ❖ وأشـفارٍ تُواليـني

لهـا رقـصٌ علـى حِـدَقٍ ❖ كريـمٍ ظـلَّ يَرميـني

وثَغـرٌ مونليـزيٌّ ❖ بِسـكتَتِهِ يُهاجيـني

إذا تمشـي فورقـاءٌ ❖ تَهـادَى في الأفانـين

وعُـودٍ أخضـرٍ غـضٍّ ❖ يُعـادي الرِّيـحَ باللِّـينِ

أغِرناطيـةٌ شـقراء جـاءت كـي ترديـني؟

فتطرَحـني بباحـة قصرهـا الباهـي وترميـني

وتدعـو الغانيـات لهـا ❖ بمجلسـها فتهجونـي

وبـين يـدي مَشـيئتها ❖ مماليـك السـلاطين

كبِنْـتِ أمـير أندلـس ❖ لهـا حُكْـمُ الأماكـين

فأحسـبُ أنـني بالحَبْسِ في رَهْـنٍ وتَوهـين

إذا بالشِـعْرِ مُنْطَلِقًـا ❖ يُغَنَّـى بالتلاحـين

وفيـه مـن مَجاري القـول أمـواجٌ تلاقيـني

فأُبـدي أنـني جَلَـدٌ ❖ فتغرقـني وتعلونـي

فأخشـى المـوت في يدهـا ❖ فتنقذنـي وتُعليـني

وألمـح في مَناحـي القصـر أشـباحا تناديـني

فأبصـر جيـدا فـأرى ❖ إمـام العقـل والديـن

يقـول: اثبـتْ فليس سـوى ❖ خيـالٍ دون تبيـين

لطيـفِ المسـلك الروحـيِّ يَسْـرِي غـيرَ مـأذون

عديـمِ الشـخص بـل كالنـار صعَّـادٍ ومكنـون

فـلا تعبـأ بـه وارتـحْ ❖ ولا تهتـمَّ بالـدُّون

ومـن إلبـيرة جـاء ❖ أبـو إسـحاق يدعونـي

بِشِـعْرٍ بابلـيٍّ السـحر يغشـاني ويَعشـوني

ويَقسـم كلُّ مـن في القصـر قلـبي ثـم يهديـني

أفي قلـبي كنـوزٌ؟! إن هـذا ليـس يُرضيـني

ولكـنْ كل مـن حولـي ❖ لـه سَـهْمٌ فيَرميـني

فـؤادي عندهـم غَرَضٌ ❖ وموتـي ليس يرجوني

وكانـت مِـن علـى عـرشٍ ❖ تَقـوَّى بالشـياطين

فتأمرهـم وتنهاهـم ❖ فدومًـا هـم يزورونـي

فأُغْمَـى حـين أبصر مِـن خَفِـيِّ الطَّـرْفِ تهويـني

وأصحـو دونمـا عقـلٍ ❖ فصَحْـوِي كالمجانـين

فأذهـب في نواحـي القصـر هرولـةً تُنَجِّيـني

ولكـن في بـلاط المُلْـكِ أنـت كأيِّ مسـجون

تلاشـت فكرتـي فغـدتْ ❖ سـرابًا ذا تلاويـن

لـك الله أمـا يَنْفَـكُّ مـن في القلـب يبلونـي؟

فمـا في الوُسْـعِ أكثـر مـن تَصَبُّرِنـا فخلِّيـني

وتهـزأ بـي فخِلـتُ بأنـني كالعبـد في الطـين

وتوحي ثم يسمعها ❖ أهالي الغرب والصين!

تريـثْ يـا حبيـبي يـا ضيـاء العـين واسـيني!!!

كـذي الوجهـين بالخبريـن في الوقتـين يأتيـني

فأخبـار أُسَـرُّ بهـا ❖ كَعَـذْبِ المـاء يُرويـني

وأخبـار أُسـاء بهـا ❖ تُشَـمِّتُ بـي وتُفنيـني

وآخِـرُ مـا يُفاجئـني ❖ رثـاءٌ في العناويـن

رأيـتُ البنـتَ مثـل قصيـدة بـتراء ترثيـني

علـى بحـرٍ غريـب واسمـه نـاءٍ كقِزويـنِ ..

تُذّكِّرُنـي بمَطلعهـا ❖ خفايـا أول الحـين

وتَبكيـني بمدمعهـا ❖ فخِلـتُ البحـر يبكيـني

وتَذْكُـر في ثناياهـا ❖ هـوى بُـول وفِرجيـني

إذا بالبحـر يعصـف بالسـفينة والمسـاكين

وتغـرق درة مـن بعـد إسـعاف وتمكـين

قضـاء الله مفعـولٌ ❖ إذا مـا الحبـل يُرخيـني

فيا ويحي على الأزمان تقطعني وتُبكيني

فقلبي مثل رعشة طائر بالقفْص مسجونِ

ذرفتُ دموع بول مَرْغِريتٍ ثم هِيلِينِ

وحُمِّلْتُ الجزيرة كلها حزنًا يغذِّيني

وكانت عُذرةٌ جمعاء في قلبي تواليني

فقل ما شئتَ من رِقٍّ و من ضعف و تليين

وأكبر ما يزيد الوُجد إذْ أرَها تلاقيني

وأعلم أنها معصومة ❖ لكن تجاريني

وهذي قمة الحب الذي حتما سيُرْديني

يلوموني بما فعلتْ ❖ علاما هم يلوموني؟!

ويزجرني كبيرهُمُ ❖ ويظلم في القوانين

ويأمرهمْ يَقُضُّوا مَضجعي حتى يَهِيضوني

ويمنعني استراحةَ مُتْعَبٍ بالهَمِّ مخزونِ

فلا أُلقي عصا التسيار إلا حيث يُلْفُوني

عجيبٌ ما يحاوله ❖ لأمرٍ ما يداريني!

ولـو مـرَّتْ بجُرْجُـرَةٍ ❖ لـكان الهَـدُّ يُرضيـني

ولكـن عندنـا مُهَـجٌ ❖ تضاهـي كلَّ مكنـونِ

وانطوى ابن خفاجة على نفسه ورجع إلى دَواته وقلمه وقرطاسه كمثل صنم نحتَهُ بإتقان مايكل أنجلو .. كان الجلساء كأنهم لا يسمعون وكان الجبل كأنه يسمع في انبهارِ .. واحتار المحتجَز في ذِكْرِ أبي إسحاق ..

- أيٌّ قصيدٍ هذا يا شاعرنا؟

قد أعميتَ علينا ما كاد يتوضَّحُ في كلام الشيخين من قبلُ !

أي شِفرةٍ هذه؟

وأي بنتٍ هذه؟ وأي أمير أندلسي هو أبوها يا ابن خفاجة رحمك الله؟

وأين أبو إسحاق الإلبيري؟ أسيقدُمُ مثلما قدمتَ علينا في هذه البادية وينزل علينا الغار؟

حيرةٌ أوقعتنا بها كمثل ظلمات بعضها فوق بعض يا شاعرنا؟

ثم استأنف ابن حزم حديثه -وكأنْ لم يسمع بالقصيدة إلا المحتجز المسكين- :

- قد بلغني ما قال الناس بَعدي ولا عجب أصلا ، لأنهم قالوا في حياتي ما يُضحك الثَّكْلى ، وأَلَّبُوا عليَّ السلطان ،

وحرَّضوا العامة، وتحاملوا عليَّ أشَّد التحامل، ولكن ليس لنا أن ندافع عن أنفسنا، إنما التاريخ من سيفعل! والذي لَقِيَهُ من هم خير منا أعظم مِمَّا لَقِيناه، أما بلغك حديث صاحبُ المسند يا بني؟

10
غواية الجنِّ والنار

«فاسجدْ واقتربْ»

قرآن

على بُعْدِ ساعة أو أقلَّ من الغروب ؛ كانت سفوح جبل «المُكْتَسِي» لا تحب غياب الشمس في بِرْكة الأفق لا خوفًا من ظلمة الليل ووحشته ؛ ولكنها تستعد لهجمة شرسة من قوافل الجن الآتية من كل حدب وصوب ، تُغير على هذه البادية فتهلك الحرث والنسل وتبث الرعب في قلوب الخليقة المتناثرة على أطراف الجبل إلى تُخوم قَبْرِ العَوْد ، استذكر المحتجز في الغار حكايات أشياخ القرية والبادية عن الجن والعفاريت ، فتمثَّلتْ له طليعة القافلة الأولى تتفقد المكان لتُنيخ به الليلة ، فأوجس منهم خيفة وأنشد صائحا في الفلوات :

أَتَوْا غَاري فقلتُ مَنونَ أنتم ❖ فقالوا الجِنُّ ، قلتُ عِمُوا ظَلاما[12]

انطلقت صيحات الجن تهدر بأصواتها ، ثم قال سيدهم :

12 البيت لشَمْر بن الحارث بلفظ «ناري» بدل «غاري».

- اِستفززْ مَن استطعتَ منهم يا سليل النار بصوتك، وأَجْلِبْ علَيهم بِخَيْلِكَ ورَجِلِكَ.

فزاد خوف الشاب وتلفَّت يُمنة ويًسرة لعله يرى الأشياخ، فإذا بهم لا يأبَهون لخوفه وكأنهم لم يروا ما يرى ولم يسمعوا ما يسمع، ثم رد بصره إلى خارج الغار والطبيعة تُوَدِّع المُتوهِّجَ الأعظمَ وهو يَغْطِس في شلال الغروب، بينما راحت جوانبها تكتسي حلة الظلام كامرأة باذخة الأنوثة تضع بين ثدييها صليبًا قد سلكتْهُ في سلسلة ذهب زَيَّنَتْ عُنُقَها الفِضِّيَّ، فلما اقتربت من باب الكنيسة راحت تَسْدُل على جسدها الفارع المصقول «عِبايةً» سوداء تُغَطِّي شيئا من مفاتنها الشرسة، إلا أن راهبَ الكنيسة يعلم أن وراء العَباءة ما وراءها، حتى لو اشتد سوادها .. كانت الطبيعة تتنكر بحجاب الليل، ولكنها تدرك جيدا أن الستار يضاعف الإغواء، فلو ظلت متبرجة بزينتها لعافها الشعراء...

كاد المحتجز أن ينسى حديثَ الأشياخ الآنفَ، وبُهت الذي كَفر منه بخُرافات الجن إذ كان يسمع كثيرا منها ويُنْكِر الأكثر ويتشكك في الأندَر، إنما خال كل حكاياتهم فَيْضًا من سَعة الخيال البدوي الممعن في الإثارة، ثم بدا له أن يتشَّبثَ بعقله ليتحقق ما ترى عيناه خارج الغار، كان الجن قد أناخوا قبل أن يرتد إليه طرفه وقال بينه وبين نفسه:

لعلهم يزدادون تكبرا إذا ازداد خوفي منهم، لأنه كان

رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهَقًا ، فلأتمالك نفسي وليثبت قلبي ...

اُثبُت يا قلب اُثبت !

راح معسكر الجن الذي أناخ بنواحي جبل المكتسي وسفوحه يوقد النيران ، وتعالت صيحاتُهم كأنما هو قتال شرس بين أعداء لا يتنازلون عن النِّزال ، أما هذا المحتجز الذي اقتِيدَ إلى الغار وقُيِّدَ في مواجهةِ الزمن ؛ فلم يجد بُدًّا من مساءلة الأشياخ ، لعله يجد عندهم أمانا من فزعه ، فقال له ابن عربي :

- أخشيتَ من النار يا بني ؟

- بل من عساكر الجن أيها الشيخ الأكبر.

- أو ليس الجن من نار؟

- بلى ... لكن نارًا ساعية أَهْيَبُ من نار باقية ...

قال ابن حزم :

- ونار موسى أكانت ساعيةً أم باقيةً ؟

وقع الشاب في مهوى حيرة أخرى ، فقال ابن عربي :

- نار موسى نورٌ يا سيدنا.

فقال الشاب مترددا :

- أهي حيلة الألفاظ؟ أتكون النار التي خارج الغار نورا؟

رد ابن حزم بصوت مليء بالحزم :

- حقائق الأشياء لا تتبدل إلا لذي عصمة.

قال ابن عربي معقبا :

- ونحن لا نَصِلُ إلى حقيقة الأشياء إلا بعين البصيرة لا البصر.

قال الشاب متسائلا :

- أوليس ما أراه بعيني حقيقة ما هو كائن في الواقع يا سيدي ؟

- و السراب يا فتى؟!

- إنما هو كثافة الجو في البادية ولا حقيقةَ له.

- لكن العين البشرية ترى أمامها كمثل البحيرة أو البحر المتلاطم، ثم ندرك بعد التحقق أن العين ترى ما ليس موجودا في الواقع.

قال المحتجز وعيناه تُبرقان لوهج النار الموقَدة في الخارج :

- ورؤيا المحسوسات في المنام أيها الشيخ؟

- الرؤيا من الرؤية .. رد ابن عربي باقتضاب وهو يرمي بعينيه إلى ذي الهيبة كأنه يحاول قراءة ما في صمته الأخير، إلا أن المحتجز أسرع بالقول :

- أكُلُّ هذا غواية الألفاظ يا مولانا؟ لا أظنك تقصد ذلك في الغالب.

لم يقل ابن حزم شيئا وهو ينصت إلى حوار صاحبه ابن عربي مع الشاب المقيد في وسط الغار، أما ابن خفاجة فكان شديد الصمت يحاول تقييد المَشاهد في مَعاقل أوزانه

الموسيقية، لا يبدو الأمر جيدا في نظر الزمان ... كان يتحسر أن آواه الجبل في زاوية صغيرة قُرْبَ مدخل الغار، وكأنه ضيف نكرة أو شريد لا يطلب أكثر من خبز ومأوى يكفيانه عَبَثَ الخليقة .. كانت عمامة ابن خفاجة أطولَ من الدهر المنحصر بين جدران الغار، أما الدهر ذاتُهُ فلم يكن أطول قامةً من أحاديث ابن عربي في الفتوحات، ولا كانت نفسه أكثر هَيَجَانًا من مَعارك ابن حزم في المُحَلَّى، كان يستمع إلى الجميع .. يتفق مع كل متحدث .. ثم ينقض موافقاته الواحدة تلو الأخرى .. تماما كشيخ قُرطبيٍّ استخلفه اثنان من فقهاء المدينة ليُفتي في مكانهما، فكان يُسأل فيقول: أنا أقول ما قاله الشيخان، فقيل له ذات يومٍ إن شَيْخَيْكَ قد اختلفا في القضية، فقال بكل نزاهة: وأنا أختلف باختلافهما.

كان الدهر نزيها في تناقضاته ... نزيها للغاية في ذلك!

قال ابن عربي مواصلا حديثه مع الشاب:

- ماذا رأيتَ في منامك الأخير يا بني؟

- أحيانا أستذكر ما أرى وأحيانا أنسى وتختلط عليَّ الرُّؤى ولا أستطيع فرز أيها الأقدم والأحدث، أفأنتَ تؤمن بالرؤى يا شيخنا؟

- كيف تؤمن بالرؤية ولا تأمن بالرؤيا؟ أليست الأرواح هي العاقلَ الحقيقي لما يحدث داخلنا وخارجنا؟ فإذا كانت الروح هي مَناطَ العقل فكيف تفرق بين ما تعقله الروح في

الحلم وما تعقله في اليقظة؟

قال ابن حزم:

- فما تأويل ما نراه من البلاد البعيدة والأحداث الغريبة؟

أومأ الشاب موافقا، وقال:

- أجل .. ما تأويل ذلك يا شيخنا ونحن لا نرى في يقظتنا إلا ما وقع في مجال العين البشرية، وفي الأحلام نتجاوز حدود ذلك المجال!

- تماما -رد ابن عربي بثباتٍ- ولأن الروح هي العاقلة والمتحركة بالجسد فهي التي تنتقل إلى البلاد البعيدة وتدرك الأحداث الغريبة ...

- أوَّاه يا شيخنا، أليس هذا خَرْقًا للعادات؟ سأل المحتجز وهو يتعجب ...

قال ابن حزم موافقا:

- وخَرْق العادات فِعلٌ إِلَهِيٌّ يظْهَر على أيدي ذوي العِصْمة فحسب ...

شبَّك الشيخ الأكبر بين أصابعه كأنه سَدٌّ ممتلئ يمتنع عن انبثاق المياه حتى لا يأتيَ على ما حَوَالَيْهِ من الخليقة، ثم أراد أن يتكلم لكنه فَضَّل الصمت مُطْرِقًا برأسه في التراب، أما ابن حزم فقد واصل قائلا:

- فإن لم يكن الأمر كذلك يا صاحبي فكيف نفرق بين المعجزة والكرامة التي يقولون بها؟ ثم كيف نفرق بين

الكرامة وأفعال السحرة والدجاجلة؟

استدرك ابن عربي وهو يحاول التخلص من مناقشة الكلام الأخير، فقال :

- طيب ... لكن يا مولانا أنت تقول بأن الروح هي العاقل المتحرك؟

- أجل ... رد ابن حزم.

- هذا يضعني في حيرة والتباس أيها الأشياخ الكرام ... قال الشاب المحتجز ثم أطرق مَلِيًّا وأضاف متسائلا :

- فما تأويل ما أراه من قوافل الجن التي زادت عساكرها وهي تُنيخ حَوَالينا على سفوح هذا الجبل المعزول؟

قال ابن عربي بين لهجة الثبات والتردد وهو يلوح ببصره إلى ذي الهيبة :

- أمَّا ما تراه فلا يكون إلا لِحَدَثٍ عظيم يا فتى !

لم يتمكن الشاب المحتجز في وسط الغار من فهم حقيقة ما يحدث له منذ منتصف النهار، كان يحاول أن يقنع نفسه بأنه مع ابنه خزيمة ومع زوجته المسكينة التي تعد له وجبة الغداء بقليل من اللحم والباذنجان وكثير من الحب والأشواق، كان إذا دخل بيته الصغير قادما من محله الصغير ينشد بعض الأبيات الشعرية التي كتبها صباحا وهو يتغزل بزوجته التي تكره الشِّعْر، أما هو فلأنه يحب الشِّعر ويحب زوجته ويحب طفله الصغير فكان كل يوم ينظم بعض الأبيات ليداعبها، «ولَّى

عهد الشعر والشعراء على ما يبدو ...» -هكذا كان يتساءل في نفسه مستذكِرًا صاحبه عزيز- لكنه ظَلَّ مصمما على أن الأشكال الفنية لا تموت، تتجدد وتأخذ مظاهر تختلف أو تتفق مع القديم لا يُهِمُّ، لكن لُبَّ ذلك الفن يبقى واحدًا لأنه ضرورة منطقية لا يمكن التغاضي عنها ولا إهمالها، فإذا مكث وقتا وهو يتحجج للدفاع عن الشعر والشعراء راح يتشكك في نوايا هؤلاء الذين يخالفونه، ويقول: إنما هم إقصائيون مصابون بِضِيق العَطَن، وسيتآكلون فيما بينهم حتى يُفْنِيَ بعضهم بعضا ولا يبقى لدينا أي شكل أدبيّ نحيا به .. إنما الفنُّ حياة .. ربما الأليق بنا ألا نجادلهم، والأليق بهم أن يتآكلوا، هكذا تموت الأصوات الشاذة بالإهمال لا كثرة الجدال، سأظل أكتب الشِّعْر دون أن آخُذَ دينارا من السلطان ولا غَنَجًا من النسوان!

قال ابن حزم مقاطعا تفكير الشاب المحتجز:

- كأنك بالأشواق يا بني!

فتنهد وقال:

- إي والله يا مولانا، إنَّ لي حبيبةً أبتغي رؤيتها، لكنني مكبل بهذه القيود في رأس جبل أعزل لا أعرف مكاني ولا لم احتجزوني هنا ...

- فما مقدار حُبِّكَ لها؟ سأله ابن عربي.

- ما يعجز عنه اللفظ ولا يطيقه القلب.

- فإن أطلق سراحك كيف سترجع إلى بيتك لتعانق حبيبتك؟

- بقدمي هاتين، وأنا لها.

- أعاشق أنتَ؟

- إي والله ...

ضحك الشيخان وتبسم الشاب في خجل، لكن ابن عربي أضاف سائلا:

- أأحببتَ غيرها يا بني؟

- لا أظن ... كلا ...

وقبل أن يواصل إنكاره أنشدهم ابن خفاجة بصوت خافت:

محا حبُّها حُبَّ الأُلَى كُنَّ قبلَها ❖ وحلَّتْ مَكانًا لم يَكُنْ حُلَّ مِن قَبْلُ

قال ابن حزم:

- فالنساء اللواتي أَحَبَّـهُنَّ كثير إذن!

- كلٌّ يُعَبِّرُ عن مَذهبه يا مولانا.

- لكن التعلق بصورة المرأة غير خاص بواحد منهن، قال ابن عربي.

- أيشتهي الرجل كلَّ امرأة يراها حتى لو كان ذا زوجة؟

- ولو كان ذا أربع زوجات ومئة جارية يا ولدي، إنما التعلق بصورة الأنثى خارج عن إرادة الرجل، لأنه تعلق

الـكل بالجزء.

تعجـب الشـاب مـن كلام الشـيخ الأكـبر ومـن صمت ابن حـزم، فقال:

- مـا هـذا الـذي تقولـه يا شيخنا؟ أنحن في جلسـة حب أم فلسفة؟

كان ابـن عربـي قـد اعتـدل مـرة أخـرى قليـلا في جِلسـته، ومال بنظره إلى مدخل الغار وكأنه يلمح أبعد من تلك النيران المشـتعلة قُبالةَ مسـرح الغروب، ثم قال:

- أيَمَلُّ الواحـدُ منـا مِن رؤيـة زَهْو الطبيعـة ورونقها؟ أفينا مَـن لا يحـب أن يمتـع نظـره بعلـو السـماء وانتصـاب الجبـال وعظمتهـا وخضـرة الغابـات وطلـوع الأقمـار وجريـان المـاء وغـروب الشـموس وإشـراقها كل يـوم وليلـة؟ أأنـت تَمَلُّ من هـذا يـا بني؟

- طبعا لا يا شيخنا ... بل النظر فيها أحد المقامات الرفيعة.

- فإن صورة المرأة هي أجمل من كل ذلك، وأكثر إمتاعا للنفس وأشـد إبهاجـا للقلـب، ولا فـرق في ذلـك بـين امـرأة وامـرأة، فكلهـن جزء من أجزاء الجمـال الطبيعي، ورؤيتُهُنَّ هـي رؤية الحقِّ ذاتِه!

صُـدم المحتجز من عبـارة الشـيخ الأكـبر، وكاد يخرج عن أسلوب اللباقة في رده، لكنه أخفى كثيرا من استنكاره وأبدى استغرابه فقال:

- وكيف ترى الحق المقدس في صورة الخلق الضعيف الناقص؟ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ في الحِلية وهو في الخصام غير مبين؟

- أنسيتَ ما قاله مولانا شيخ المذهب أبو محمد الوزير ابن الوزير حين قال إن قُبلة واحدة من «نُعْم» حبيبته خيرٌ عنده من الخلود في الدنيا بكل مُتَعِها ومَلذاتها؟ وهذا منه قليل من كثير يا ولدي ... أم ماذا ترى يا مولانا؟ وكان قد ردَّ نظره إلى ذي الهيبة.

قال ابن حزم وهو يتذكر بعض أيام شبابه حين كان يجري في أروقة القصر الوزاري النساء تحيط به من كل جانب، ويَسْتقْبِلْنَهُ في كل غرفة بالوجوه النيرة، والثغور الباسمة، وشقرة نساء قرطبة وضواحيها، وغناء بعضهن أغانيَ زرياب على أنغام أهل الأندلس ..

حيث يجتمع الحنين بالغرام ..

ويختلط الحب بالخصام ..

ولا يسأل حميم حميما عن أهوائه، ولا ما فعل بأرض الحب وسمائه، ولا عن جديد غواياتْه أو قديم أسمائِه؛ قال أبو محمد بعد كل ذلك:

- إن الذي نخوض فيه أقرب إلى الإعجاز وأوسع من الإيجازِ، ولا يصح فيه إلا أنه آية تفوق الإدراك العقلي، إذ هو أَدَقُّ من كل دقيق وأَرَقُّ من كل رقيق، برهان ذلك أننا حين نرى الصورة الحسنة لا نضبط المُشْتَهِي الأول

أهو الروح؟

أم العقل؟

أم القلب؟

أم الجسد؟

ولو كان الجسد لاستوى الاشتهاء في رؤية كل النساء، ولو كان القلب لما نَسِيَ القلب نَبْضَهُ الأول، ولو كان العقلُ لما عَشِقَ الرجلُ المرأةَ التي تترفع عنه أو تُحِبُّ غيره، وأما الروح فنحن لا ندرك ماهي الروح حتى نحكم بها ولا عليها، وسبب هذه الحيرة يا صاحبي أن الصورة مترددة بين النوراني والجسماني، ولو رُمْتَ الفَصْلَ بينهما لما عُدتَّ إلا بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ .. ثم أنشد ابن حزم بيتَه هذا:

أرى هيئة إِنْسِيَّةً غيرَ أنهُ ❖ إذا أُعْمِل التفكيرُ فالجِرْمُ عُلْوِيُّ

فسجد ابن خفاجة وأطال السجود، ثم قيد البيت في صحيفته، وهمس مُنشدًا:

عُلِّقْتُها عَرَضًا وعُلِّقتْ رجُلًا ❖ غيري وعُلِّقَ أخرى غيرَها الرَّجُلُ

أما ابن عربي فقد طَرِبَ لِمَا سمعه من صاحبه ذي الهيبة، لكن الشاب المحتجز في وسطهم قال:

- إنما زدتَّنا حيرة بأن طرحتَ أسئلة أخرى وتركتَها مقفلة يامولانا!

قال ابن عربي :

- بعض الأسئلة يا بني أشهى من البيان.

- لعل الفكر عجز بكم أيها السادة في شرح ماهية الحب، لأنكم دندنتم حوله منذ ساعة ولم تصلوا بنا إلى الجلاء.

- أي ساعة من النهار هذه يا بني؟

- أنا مقيد في هذا الغار منذ الظهيرة ويبدو أن الشمس قد غربت أو كادت.

- ومن أدراك يا ولدي وهذا الزمن مُتَّكِئٌ عند مدخل الغار، وأنت لا تضبط إيقاعه؛ فمَرَّةً يطول ومرة يقصر.

- إي والله أيها الشيخ الأكبر ...

- فآية الاشتهاء أبعد من آية الزمن يا بني!

فتبسم ذو الهيبة من كلام ابن عربي وقال بصوت مُخافت :

- إي والله، فآية الخلود ليست أعجب من آية الحب، بل ليست شيئا يُذكر إذا ما قرنتها مع اتصال الشفاه بالشفاه ...

هيهات الحب منك أيها الزمن!

هيهات منك الحب أيها الخلود!

لا زال ابن خفاجة يَخُطُّ البيتَ تِلْوَ البيت وينتقي من كلام جلسائه ما يناسب نغمات شعره الأندلسي الباذخ، ولعله كان يمزج إلى مختارات حديثهم ما يستقيه من أصوات الطبيعة داخل الغار وخارجه، ويحاول أن يزين قصيده بوصلات الزمن الذي بجانبه، ولكن الزمن بدا أنه يتحرز من غَدْر

الشعراء وألاعيبهم، فقال ابن خفاجة:

- ما لك أيها الشيخ الفاني، ما لك أيها الشيخ الهَرِم، ألا تزال متشبثا بالحياة وهي تطردك، وتغتر ببهاء مظهرك ونفسُك الشيطانية تكاد تهلك من سوء صنائعك، فوالله إن كنتَ ذا كرامة فلا تتجمَّلْ .. ما عادت نفسك تتحمَّلُ سخافتك، إنما أنت كالعجوز التي تتزين للناظرين وهي قبيحة الوجه ساقطة اللحم ليس فيها شهوة إلا شهوة اللَّعْن، ولا يراها الناس إلا تذكروا المصائب والمثالب، فأنت شرٌّ منها يا فَتيَّ المَظهر و يا هَرِمَ الروح، أما سمعتَ كيف تعالى الأشياَخ عنك واحتقروك؟! فمن يُؤَلِّهُك غيرُ الجهلة الغوغاء، وأنت تدرك ذلك جيدا ولذا أنت تحشر نفسك عند مدخل الغار كأنك شريد أو طريد ... ولو كنتَ ذا نبل ما اختلستَ من الشباب حياتهم وألصقتها بروحك الفانية هذه ...

كانت عيون الدهر جاحظة لم تغتمض كثيرا، كأنه يتلقى صفعات الحقيقة من صاحبه، فلم يَحِرْ جوابًا، وظل صامتا كالطفل المدلل الذي يسمع التوبيخ من والدته أول مرة لكثرة زَلَلِه ودوام خَطَلِه، فهو بين الدهشة والإنكار، وبين الغضب والاعتراف، يبحث عن مهرب من الكلام أو ملجإ ليستر خديعته، ثم تتضخم ذاته وتنتفخ هُوِيَّتُهُ ويستذكر آلاءه على الخليقة، ويَحْتار:

أَيَنزل ميدان الحِجَاج ومُقارعة الخصوم؟

أم يبقى ذليلا في صمته ويواصل رمي سهامه خُفيةً مِن مَخابئ الحياة؟!

قال الشاب المحتجز وكأنه لا يعبأ كثيرا بما سمع من توبيخ الزمن:

- لعل الزمن أيها الشاعر خيال في أذهاننا لا حقيقة له، كطائر العنقاء يحيطونه بألف خرافة ويزعمون أنه لا يزال يَصيح عند قبر المغدور حتى يؤخذ بثأره، أو ليس طول الشقاوة وقِصَرُ السعادة مجرد خرافات نخلق بها هذا الزمن الذي لا نتحسَّسه؟

- أو لم يقل مولانا إن آية الحب أعظم من آية الخلود؟

- أليس الخلود أحد أوصاف الزمن فحسب؟

- لا أدري ..

- إنما أنا أتساءل ولا أنكر ولا أتيقنِ!

انفرجتْ أسارير ذلك الشيخ اللاظ بكتفيه عند مدخل الغار، كأنما أعجبه أن يتحول الكلام من مَسَبَّتِهِ وشتيمته إلى البحث عن حقيقته، فأضحى كالمرأة الحسناء لا تحب من ينتقدها أبدا، لكنها تهوى أحاديث الرجال في سِرِّ أنوثتها حتى لو أصيب بعضهم بالجنون، فالدهر مثل المرأة يستمتع بها الناس لكن إذا اقتربوا منها فقدوا عقولهم.

في الخارج غاب ضياء الشمس تماما وجاء الليل بهدوئه الصاخب ..

بتلك العظمة التي لا يفهمها أحد ..

بتلك الرهبانية..

حيث يبدو كَقِسِّيس ..

لا أحد يشبه الملائكة مثله ..

ولا أحد يشبه الشياطين مثله ..

يتسرب في أنحاء الطبيعة كما يفعل الماء الغائر في باطن الأرض وعمقها المُمْتَدِّ، يحب اندهاش الخليقة من ظلامه، ويطرب إذ يراهم يخضعون لهيبته رغم أنه يحل عليهم كل يوم ولا يتغيب عن موعده أبدا، ويتشهى لو كان سَرْمَدِيًّا عليهم لا نهار بعده ولا شمس تطارد عظمته وتكسر جبروته.. شَرَعَ الليلُ يرمي الخليقة بسهامه كأنه يتبع فلولهم، ومن لا يرضى بقدومه منهم فيصيبه سَهْمُ الظلام حتى يكون الليل له سكنًا ولَبوسا بعد شتات النهار، من ذا الذي لا تلحقه ظلمة هذا الهائج الغازي؟ أيهم توبقه فطنته لئلا يدفع ضريبة الحجاب الأسود؟! تتلاشى أصوات الجوارح في السماء ويقبع الناس إلى بيوتهم يؤنس بعضهم بعضا حتى لا يرعبهم سكون الليل وغموضه ...

اشتدت ظلمة الغار لولا لمعان خفيف تلوح به النيران المتوهجة على سفوح الجبل، كان المحتجز قد زاد خوفه، لكن الذي زاد أكثر شَغَفُهُ بما قال ذو الهيبة!

10
غواية الأنفس

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور اللّه»

حديث شريف

لقد ضِقتُ ذَرْعًا بهذه القيود، أشتهي الحركة والانتقال ولا يسعني أن أبقى هنا أكثر من مُكْثي هذا، أريد أن أعرف لِمَ يحتجزونني وما شأنهم بي؟

أيُّ عذاب هذا الذي أتلظى به اليوم؟

أي قلب يحتمل الانتظار أكثر مما فعلت؟

لا أدري ما سيفعلون بي أو ما لن يفعلوا بي؟

التَّرْكُ أشد عذابا من الفعل، أليس من عذاب الظلمة أن ينساهم ذو الحكم الأعظم ويقول: «نسوا الله فنسيهم»؟!

إن الغياب المُطْلَقَ لهو أفظع من حضور الألم!

كان الهدوء القاطن على صدره يوقظ فيه سؤالات العذاب، ويجعل عقله عُرضة لجراحات الأفكار القاسية، ويَنْصِبُ قلبَه غَرَضًا لرماية الوساوس ذات اليمين وذات

الشـمال ..

يتنهد فيجيبه العدم برَجْع الصدى اللامتناهي ..

ويسكت فتفزعه أحاديث الوحشة المرعبة ..

إنـه يترنـح ولا تنعشـه رائحـة اللـبن ويتمـاوت فـلا تسـعفه كسـرة الخبـز ..

ويشـتهى السـقوط إلى الأرض فـلا يسـقط لأن قيـوده تمنع عنه شـهوة السـقوط ..

ويغيـب عـن الوعـي بالـذات ويفنَـى داخـل متاهـة العـدم المتوحـش ..

يجـري بنفسـه في بيـداء الروح المقفرة فلا يظفر بمنبع يَشـفي بـه غليـل السـؤالات ، ولا يجـد ظِـلا يحتمـي بـه مـن شمـس الوحـدة ، وتلـك علامـات بينـه وبـين اللاوصـول تخـبره أن الزمـن تلاشـى ، وأن المبـدأ والمنتهـى نقطة واحدة يتشـابه فيها الانطلاق والوصول .. ثم كاد أن يصرخ ولم يسـمعه أحد لا الأشياخ ولا عساكر الجن ، ولا حتى نفسه سمعت صراخه !

أيتهـا النفـس أجملـي جَزَعَـا ❖ إن الـذي تحذريـن قـد وقعـا[13]

رَمَـتْ بـه الأفـكار في غَيابـات الجُـبِّ العميق ، كانت نفسـه أعمـق مـن أي جُـبّ آخـر يمكـن لـوَارِدٍ أن يَـردَهُ أو صـادر أن يَصْـدُرَ عنـه ، لكـن مياه نفسـه قـد نَزَحَـتْ وغـارت في ظلمات الذات المتشـعبة.

---

13 مرثية أوس بن حُجْر.

أين ماء الحياة أيتها النفس؟

أأنا في وسط هذا الغار الأعزل كبِئْرٍ مُعَطَّلةٍ وقَصْرٍ مَشِيد؟

وما لتك النفس لا تزال غَضْبَى مَنزويةً على ذاتها غيرَ آبِهَة بوحشتي ..

ألا تُحِسِّين بما أُحِسُّ به يا صاحبتي؟

أو يحسن بك أن تخذليني وأنا في أضعف الأحوال معلقا بين التحقيق والخيال، مُهْمَلا في بادية الوجود، لا أدرك أيَّ الأبعاض يحدثك مني ولا أي الأبعاض يستمع في ترقب، ولا أدري أأنت أحد الأبعاض أم أحد الأغيار يا نفس؟

أأنتِ الشاعرة بالمتعة والألم أم الناطقة باللوم حين الأغلاط؟

أأنتِ معي كل حين أم لا تزورين صدري إلا غِبًّا وتَغيبين بعد ذلك إلى حيث لا أعرف لك مقيلا ولا مبيتا؟

و أين أنا منك يا ترى؟

أأنا الصاحب ذو القربى؟

أم الشريك الذي تُقَدِّرينَهُ بالمَضارِّ والمَنافع؟

أم أنا العَدُوُّ الذي تتربصين به رَيْبَ المَنون؟

أأنا أَسِيرُكِ الذي تعبثين بكرامته بين مَضايق الألفاظ ومَعالق الأفكار حتى يتعذب كما يتعذب الظمآن المتتبع لمواقعِ السراب؟

إن أَخْوَفَ ما أخافه أن يكون لك حديث خافت لا

أسمعه ، فإن كنت تسمعين أحاديثي التي أُناجيكِ بها فأنا لا يبلغ سمعي نجوى أحاديثك يا نفس !

فبالله عليك ماذا تخبئين عني؟

ما أنا وأنت إلا كعارف بلسان واحد وعارف بلسانين ، تفهمين لغتي ولا أفهم لغتك !

وبالله عليك أأنتِ من يقودني حَتْفَ أنفي لأُواقِعَ الآثام؟

أم أنتِ من يُخَوِّفُني من عاقبة الخطأ ويُنذرني حتى لا أنتهك الخطايا؟

أم لعلك المتفرج الذي يُسَرُّ إذا أصبتُ ويهزأ بي إذا أخطأتُ؟

أم أنتِ كل تلك الفوضى المتلاطمة بين الخير والشر؟

أأنت النورانية العُلْوية أم النارية السُّفلية؟

أم فيك مزيج بين طبائع الأفلاك وطبائع الأرض؟

- إنما شفاء العِيِّ السؤال يا بُني ... همس ابن عربي للشاب المحتجز ذي الحيرة.

رد الشاب وقد انتبه من خُلوته :

- أو ليست السؤالات مَثاراتٍ للغلط يا شيخنا؟ وأنا ما أرهقني إلا السؤال.

- إذا أرهقك فقد أوشكتَ على البلوغ.

- وإن طال الرَّهَقُ؟

- زادت مرتبة السمو ، أو ما رأيتَ الولد يسأل الشيء

فيفهمه فيُعجب به والداه، فإذا سأل أكثر وفَهِمَ عنهما جوابهما زاد حُبُّهما له وإعجابهما بفهمه.

- ما أنا في التحقيق إلا ذلك الطفل.

- آهٍ لو بلغتَ منازِل الطفولة يا فتى!

- أو ليستْ مَنازِلَ الجَهل والتصابي يا سيدي؟

- بل هي مراتب التجلي الأكبر... قال ابن حزم معترضا ثم زاد:

- والحب يا صاحبي؛ أوليس الحبُّ هو حق العودة إلى الطفولة؟

- الله الله! اهتَّز ابن عربي وقد مال به الطرب، فابتسم المحتجز وقال:

- نطقتما أيها السيدان بما في سويداء قلبي!

لكنه لم يَفتُرْ، وسأل بعد ذلك:

- وهل لكل واحد منا حق العودة؟

رد ابن حزم وهو يبادل صاحبه الشيخَ الأكبر النظراتِ:

- إنما حق العودة للمريد حق الإرادة، فمن لم تكتمل إرادته لم يتجهز بعد لأن يعود ولا استشعر بقلبه ذلك الحق الأبدي!

بدا على الشاب ملامحُ الأسى وهو يتذكر ابنه وزوجته وكيف سيعود لهما، ثم سأل:

- من أراد حق الإرادة سيكون له ما أراد؟

- بل سيَنْبَجِسُ له بحر الاعتراض ويَنفلق ويكون كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم، وسيمشي المُريد بينهما ليصل إلى ما أراد.

هكذا سمع الشاب المحتجز ولم يتوضح له صاحب الصوت أهو ذو الهيبة أم الشيخ الأكبر؟!

فقال متوجسا في كثير من العجب:

- أيكما قال هذا أيها الشيخان؟

- تواردنا يا بني، قال ابن حزم و أردفه ابن عربي قائلا:

- إنه التوارد يا بُنَيَّ!

- قد يخطر ببالي شيء خطر ببال قريب أو بعيد مني، لكن كيف لي أن أتوافق معه في عبارة واحدة بالحرف الواحد؟

- أو نُسِّيتَ موافقات عمر يا فتى؟ قال ابن حزم.

ثم صَدَّ ابن عربي بوجهه إلى عَيْنَيْ الشاب وقال:

- أو نعجب من توارد بَشَرَيْنِ ولا نعجب من موافقة ذي النقص مع ذي الكمال المطلق؟

- ونُسَمِّي ذلك موافقة يا شيخنا؟ وهل يتوافق ذو النقص مع ذي الكمال المطلق؟

قال ابن عربي وهو يحاول ترتيب الكلام مجددا:

- أنت ترى كيف ترحم الأم ولدها وتلطف به، فإن صاحب الكمال المطلق لهو أرحم بنا من أمهاتنا، أفلم يتوافقا في أصل الرحمة يا ولدي؟ والرحمة صفة لذي

النقص ولذي الكمال، والكلام كذلك صفة لذي النقص ولذي الكمال، إنما نتخلق بأخلاقه يا ولدي، ولن نبلغ الكمال حتى نفنى تمام الفَناء في هذا التخلق.

- وأنا أقول بقولك في الفَناء لكنْ بين العاشقين ..

قال ابن حزم، فأجابه الشيخ الأكبر:

- ما خرجْنا عن قولك يا مولانا، أو لم يتطاير عالم الخلود بمَلَذَّاتِهِ أمام قُبلة واحدة من صاحبتك!

قال الشاب مُتَرَفِّلا بين الجِد والهزل:

- ما أرى نفسي إلا على فَناء ابن حزم لا فناء ابن عربي أيها الأشياخ.

رد الشيخ الأكبر مُتعجلا بالبديهة:

- إنما أنتَ يا ولدي واضعٌ قَدَمَيْكَ على فِناء الفَناء.

ثم بقليلٍ من الدهشة وكثير من التعقل قال المحتجز:

- ما ألذَّ غواية الألفاظ يا مولانا!

وبالصوت الخافت قال ابن خفاجة مُتَفَرِّسًا في عيون جلسائه وباسطا كَفَّهُ إلى منبع الشِّعر ليبلغ فاه:

- أيُّ الغِوايات هي؟ أنُسِّيتُم أن الشعراء يتبعهم الغاوون؟!

- إذا كانت غِوايات الأشياخ بالألفاظ على ذلك القَدْرِ من الإرهاق، فما بالك بغواية الشعراء الذين يتبعهم الغاوون؟

سأل الشاب باقتضاب وهو لا يريد أن يدخل متاهة

الشعراء لكن ابن خفاجة رد قائلا :

- إن الغواية ليست مُناطة بنا ، إنما أُنيطَتْ بمن يتبعنا فحسب !

- فإذا كان من يتبعكم غاويًا فلأنتم أَغْوَى يا صاحبي !

نَتَفَ الشاعر شيئا من لِحْيتِه وحملق بعينيه في جوانب الغار ، ثم قال :

- الكلام أعمق مما دار في تصورك يا ولدي ، والقياس الذي حَصَّلْتَه خاطئ وسأنبئك بغلطتك فأَصْغ إلي ؛ أما ترى هاروت وماروت كيف كانا يعلمان الناس السَحر ثم يقولان لمن يتعلم إنما نحن فتنة فلا تكفر ؟ ! فإن من البيان لسحرا يا فتى ، والشِّعر من أبلغ السحر ، فإذا سحرنا الناس بأراجيزنا قلنا كما قال الملَكان : إنما نحن فتنة فلا تكفر.

فطرب الجلساء وبدا عليهم الإعجاب بما قاله الشاعر ، فأجابه ابن حزم متبسما :

- والله لو كان القياس حقا لكان قياسك يا ابن خفاجة أصح قياس ! لكن ...

فضحك الجلساء قبل أن يُتِمَّ ابن حزم حديثه ... أما الشاب المحتجز فراح يتأمل وهج النار وكأنها الأنجم الزهر أو النيازك الحارقة وهي تلمع في ظلمة الأرض الموحشة ، ثم تساءل في نفسه : كيف لهذه الخليقة أن تأمن على نفسها وقد سُخِّرَ لكل واحد منها قرينٌ فهو يصاحبه في الحضر والسفر

ولا يتركه على أي حال؟

يهجم عليه فيعبث بفكرته ويَلْبِس عليه الحق بلباس الباطل ويزين له الرذيلة وارتكاب المظالم، ثم يخذله في ساعة ضعفه وتجرده من عَباءة الخيلاء، ليجد نفسه عرضة لِنبال الدهر وجوارحه، أولا يُجَرِّئنا على اِلْتِذَاذ الكِبْر ويخذلنا حين نكون من الصاغرين؟!

إن الذي يمهد له الطريق كي يحتل عقولنا إنما هو خائن يسكن ذواتِنا ويتغذى من مآسينا ومصائبنا .. ولكن أي الأبعاض هو؟

أي أجزاء الإنسان هو الخائن؟

أهو الروح الذي لا ندرك ماهيته إلا بضَرْبٍ من الكُلفة وشيء من الخيال؟

أم هو الجسد ذو الشهوة الطينيَّة؟

أم النفس؟

وأي الأنفس تلك وقد تفرقتْ أبعاضُها في الذات أياديَ سَبَا؟!

ثُمّ انتشل فِكرَهُ من الحيرة مرة أخرى واستعاد الكلام الأخير لابن حزم فقال وكأنه يريد تشعيب الحديث:

- أكنتَ ستُعَقِّب على قياس ابن خفاجة يا مولانا؟

فالتفت الشاعر مُتَجَهِّمًا في وجه الشاب بعد أن كان يَخُطُّ بِضْعَ كلمات على قرطاسه، وأما ذلك اللاظُّ بكتفيه على

جدار الكهف ؛ ذلك الزمن المَقْصِيُّ مِن دفء الجلسة فيبدو أنه مستمتع في ترصُّدٍ، غيرُ آمِنٍ على نفسه المتوثبة مِن لاذِعِ أحكامهم، ثم قال ابن حزم وهو يستجمع فكرته :

- إذا كان وصف الغواية لمن تبِع الشعراء، فإن وصفين آخرين أراهما أشد قَدْحًا قد لَحِقا بالشعراء، أحدهما الهَيَمان، والآخَرُ أن أفعالهم تخالف أقوالهم.

قال ابن خفاجة معترضا :

- ولكنك تقول الشِّعر يا أبا محمد!

- بلى ... أقوله وأُكْثِرُ منه، إنما يُذَمُّ مِن الشِّعر ما يُمدح به الظَّلَمة استجداءً منهم للدينار والدرهم، أو تُشاع به الرذيلة وتحارَبُ الفضيلة ويُطْعَن به في أعراض البُرَءاء، وأفْضَلُ الشِّعر ما بُنِيَ على قوالب الحكمة وإذاعة الحق ودَحْضِ الأوهام والسفاسف، وبينهما مراتب مما يتغنى به الناس ويستعينون به على مرارة الأيام وغُصَّة الزمان!

كاد الشيخ عند مدخل الغار أن يفزع إلى الخارج حين نطقَ ابنُ حزم بِاسْمِهِ ؛ خوفا من أن يشتغل به الجلساء ويَشرعون في مَثالِبِهِ، إلا أنه لمس منهم قلة مبالاة به واحتفالهم بأشياء أُخَرَ ؛ فهدَّأ من روعه وبدا له أن يتخفى بحقيقته عن أذهانهم لكنه لم يفعل، فذاته الملتهبة تشتهي مجلسا كهذا يقضي على لوعة وحدتها المتسامية على الخليقة، كان يدرك أيَّ وحشة تَقُضُّ مَضجِعَه في رحابة هذا الكون المترامي الأطراف،

ضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ ، فأوى إلى الغار ، ورمى بعصاه على أرضه ، ولظَّ بكتفيه على جداره ، كأنه جانح إلى السلام بعد تطاول حربه الخالدة مع الوجود ..

أهكذا كل حرب مهما كانت شراستها تختم بالسلام بين أفظع الأعداء وأشدهم غدرا ببعضهم؟!

على سفوح هذا الجبل اِمْتَدَّ سفك الدماء طيلة مئة واثنين وثلاثين سنة ، وكأنَّ الذي افتعلها وأحمى جذوتها وَقَّع عَقْدا مع الزمن أن لا يسأل عن نهايتها ، وكأنه فرض على الزمن ألا يتدخل في جريانها لأنها ستكون حربا خالدة لا تنقضي ولن يشهد المؤرخون نهايتها أبدا ، هكذا ظن دي بورمون قائد الحملة العسكرية على الإيالة العثمانية العظمى والمُنْهَكة من وَجَعِ الجهل ، غير أن البايات الذين شَنُّوا الغارة على فرنسا قد صَرخوا في وجه الزمن :

إننا لأكثر خلودا منك وأشد مصابرة ، أما العقد الذي وقعتَه مع شارل العاشر فهو أسخف من الحِبْر الذي كُتِبَ به ، عليك أن تعي أيها الزمان أننا نعشق الموت كما يعشق أبناؤك الحياة ، وأننا إذَا مِتْنا مرة بُعِثْنا عَشْرًا ، فإذا تخليتَ عن تأريخ الحرب ، فأَنْبِئْهُم أننا سنُؤَرِّخها بدمائهم ، ونجعل لنا زمنا آخر ، وتقويما جديدا نضبطه بأسماء قتلاهم وعدد خسائرهم ..

فإذا كان العام الواحد في تقويمك أيها الزمن ثلاثَمئة وخمسين يوما فإن العام الواحد في تقويمنا سيكون ثلاثمئة وخمسين هزيمة لأحفاد نابليون ..

وإذا كان يومك أربعا وعشرين ساعة فإن اليوم عندنا أربعة وعشرون قتيلا من جنود نابليون ..

وإذا كانت الساعة ستين جُزءا فإن الساعة عندنا ستون جُرحا يتألمون به ويصيحون ..

هكذا أيها الزمن معركة الحسم وهكذا عقدنا العزم!»

ظل الزمن مُرْهَقًا من تلك الصيحة صبيحة يوم من أيام الصيف عام 1830 ، أُنْهِكَتْ قُواه وتبددت مطامعه في إذلال رجال كالجبال، فأوى إلى أخيهم منتظرا مَصيرَه!

سمع المحتجز صوتا قريبا من قلبه بعيدا من أذنه»

«من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل «.

وتردد الصوت مرتين أو ثلاثا يقترب حينا ويبتعد أحيانا أخرى:

« من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل « ...

«من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل»!!

كان يتلفت إلى جلسائه بسرعة وببعض الارتياب: أيهم صاحب الصوت؟

- أيكم صاحب الصوت أيها الجلساء الكرام بالله عليكم؟!

قال ابن عربي :

- الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه يا بني !

- ولكن ماذا يَعْنِيهِ الهاتف مِن بُعْدٍ حين صاحَ «من خاف أَدَلَجَ ومن أدلج بلغ المنزل»؟

- إن الإمام يروي والناس يكتبون يا بني ، فهلَّا كتبتَ عنه !

قال ابن حزم :

- قد أبلغناك حيث النجم الفرد المضيء في غياهب السماء العاتمة.

12

غواية الألفاظ

"حديث الليل يمحوه النهار"

شعر

اِمْتَـدَّ الفِكْـرُ وكأن الكـونَ الرَّحْـبَ لم يَعُـدْ مُنْحَسِـرًا بـين جنبـات الغـار ..

تلك الأنجم المترامية كحبات الصّدَف المتناثر ..

تلك الكواكب السيارة في أفلاك الخيال ..

الأقمار المنيرة عنه بسواحل الحياة ..

النيازك المنهالة بين الفينة والأخرى ..

الحجـارة المرتطمـة بعضُهـا ببعـض دون سـابق موعـد ولا ميعاد ..

نقـاط مُهمَلـة تسـبح في بحـور العقـل ، تعبـث بهـا أمـواج الزمن فتُغرق بعضًا وتنقذُ بعضًا ، يضيع الفكر ليستجلب إليه ضـرورات الخواطر وحاجيَّات الآراء ، فـلا يستطيع إنقاذَ ما غَرِقَ منها ، ينظر إليها وهي تنأى شيئا فشيئا حتى تختفي عن أعَين البصيرة ، ويسـحقها الزمـن بـين مَخالبـه الحـادة ، فييأس

الفكر من استردادها لاحقا، لكن عبثية الدهر تستعيدها متى تشاء وتجعل عجائز الأفكار سيداتِ الأبكار ..

أهذا من عِجز العقل أم من سطوة الزمن؟

أتغرق الخَطَرات في بحور الذاكرة أم تتلاشى فتموت دون رجعة؟

أيُسعفنا ذلك أم يزيد في مأساتنا؟

أتلك سخرية أن ترتجف إنسانيتنا أمام الكلمات التي تسبح في دواخلنا وتجعلنا أضعف الخليقة حتى نبتهج لحرف واحد، ونبكي من كلمة واحدة، ونمتلئ حيوية عند سماع جملة ثم تنهار قوانا لجملة أخرى؟

ما لهذا الخَلق البشري وكأنه لا أُضعفَ منه؟

يقدِّس الكلمات فيجعل منها المُحيِيَ المميت؟

كم صرفت الأموال لأجل الكلام ومُنِعَتْ الأرزاق لكلام آخر؟

كم ضُربَتْ رقابٌ تفوَّهَ أصحابها ببضعة أحرف فسالت دماؤهم وثَكلت أمهاتهم؟

وكم اجتاحت الجيوش العارمة دولا بعيدة لكلمة قيلت في مجلس السلطان فكانت نهايته واحتُلَّ بلده واستُعْبِدَتْ رعيته؟

وكم مالت قلوب النسوان لمعسول الأحاديث وأكاذيب

الشعراء ..

«اللّسانْ الحْلُو يَنْكَعْ اللَّبَّة».

هكـذا قـال جـدي ذات يوم وهو ينصح جـاره الغبي الذي دوما يتشاجر مع زوجته، أيكون مصيرنا في بضع كلمات ما هـي إلا أصوات من الأصوات؟

أيٌّ سِحرٍ فيكِ أيتها الأحرف وأيٌّ رهبة؟

ألك الأمرُ حين تخرجين من بين الشفاه أم الأمر لنا؟

أنحن أَسْرَاكِ أم أنتِ الأسيرة عندنا؟

أذاتُ حُرِّيَّةٍ أنت تنطلقين حيث تشائين وتتراكمين مندفعة في آذان الخليقـة حتـى تقرعـين أسماعهـم فتُسعدين بعضهـم وتذرفـين دمـوع أناس آخرين؟

أي جمال فيك وأي فتنة!

آهٍ منك يا غواية الألفاظ!

آهٍ منك يا عبث الحروف المتراكبة!

آهٍ منك يا نَسَقَ الأصوات!

أتجرنين حيث شئتِ، وتَسْعَيْنَ حيث أردتِّ؟

أتمشـين الهُوينى بـين مقامـات الهـدوء، غافلـة عـن لهـف القلـوب اللاهثـة وشـغف العقـول الرانية؟

أي سطوة لكِ علينا أم أي كبرياء تكسو ذاتك المتلونة؟!

نتسـاءل بـك أيتهـا الألفـاظ عـن حقيقتـك، ونحتـار بـك في توصيفك، إذا مدحناك مدحناك بك، وإن هجوناك هجوناك

بك ، و إن رجوناك رجوناكِ ببعض منك ، فلو أردنا أن نتخلى عنك تخلينا عنك بشيء منك ، أما المَهرب فمنك وأما الملجأ فإليك ، بلى نحن أسراك أيتها الألفاظ ، ننطق بك ونصمت فتهيج عقولنا وقلوبنا بأكثر مِمَّا نطقتْ به ألسنتُنا منك ، أنت الخط المستمر الذي يضاهي كبرياء الزمن ، إذا ضاق بي الغار فأنتِ بساط الروح الذي يوصلني حيث أشاء وكيف أريد ، يُسمعني ما أشتهي ويُريني ما أتمنى ، أنتِ المتعالية على الزمن والضاحكة عليه ، أنت من أحضرتِ لي مجلس النبلاء ، وأنت من كشفتِ لي شهوة العروس ، وأنت من زاد الجبل هيبة إذ تنزلتْ عليه السُّحُب فأوحت إليه السماءُ ما يوحَى ، أنتِ من اهتزَّ الشيخ الأكبر طَرَبًا لك ، وأنتِ من سجد ابن خفاجة لقداستك ، وارتدَّ الزمن خوفا من سهامك ، أنت من سحرتِ الأندلسيَّ ابنَ حزم ذا الهيبة الوزيرَ ابنَ الوزير فأقام الدنيا إجلالا لكِ حتى لا يخرج أَحَدٌ عن ظاهرك وحروفك ويَتيهَ في شُعَبِ الظنون ، أنت الغواية الأولى وأنت الرعشة الأخيرة ، وأنتَ ما بينهما من شَدّ وجَذب ، وأنت المَدُّ والجَزْر ، وأنت ظلمة الإغراب وضياء الإعراب ، أنت سكينة الرضى واضطراب العشق ، أنت حفلة التنصيب وصعقة الإبعاد ، أنت دهشة الحياة وأنت مصيبة الموت ، أنت سِفْر التكوين وزَبور المحبة ، وأنت الرحمة الإنجيلية والعدل المحمدي ، أنت اللِّين البَكْرِيُّ والشِّدة العُمَريّة ، أنتِ المَقام الموسوي والمُلْك

السليماني ، أنت درجات الأَوْج ودَرَكات الحضيض ، أنتِ نجوم السعد والأيام النَّحِسات، أنت ميلان العشاق بالماء الدفاق ، أنت الصديق الأوفى والعدو الأعتى ، أنت مَقاتل الشرفاء و مَفاوز الأنذال ، أنتِ غِناء القِسِّيس وهلهلة أبي ليلى وغموض الرواة في غلغامش ، أنتِ البحور الجريرية والأحجار الفرزدقية ، أنتِ الظلمة الرابعة التي أنارت على أبي العلاء ، أنتِ رعونة المخزومي وسخافة ابن هانئ ، أنتِ خَمرة أبي نُواس ونبيذ أبي حنيفة ، أنتِ أشواق ابن زيدون ودلال ابنة المستكفي ، أنتِ مَعاقد العصمة ومَثارات الغلط ، أنتِ التي تحركين الزمن فيستطيل ويقصُر ، يُسرع ويبطئ حتى يصيبه السكون المرعب ، ثم تملئينه بالأحداث حتى ينفجر ويتلاشى كَذَرَّاتِ الهواء ، ثم إذا شئتِ جَمَّعْتِيهِ وأَغْرَيْتِيه بالوصال ، أنتِ حيرة الزمان و ثبات المكان ، أنتِ بدء الخليقة ، أنتِ دهشة آدم في جسد حواء ، أنت ظُلم قابيل ، أنت روعة الأساطير وهيبة الأساطيل ، أنتِ مَرارة الحق وحلاوة الأباطيل ، أنتِ أكبر من هذه الحقائق وأسرع من الماء الدافق ، أنتِ لغة العقل وهيجان النفس وهدوء الأرواح وشبق الأجساد ..

أنتِ النُّون ، وأنتِ القَلَمُ وما يَسْطُرون !

– آه ، كم غوتْ بك الألفاظ يا ولدي !

قال ابن عربي وقد تنهد من الأعماق وكأنه كان بفكره

بعيدا كل البعد عن هذا الغار ، أو كأن الغار اتسع به على أرحبَ من هذا الكون الشاسع .. ثم أضاف :

- إنما غوت بك الألفاظ فسُحِرْتَ بها.

- والله ما أدري يا شيخنا ، أو لسنا مجرد ألفاظ يفيض بها الروح ؟

قال الشاب المحتجز وهو تائه في بيداء الحيرة.

- أو لعلنا صدى لكلماتِ الوجود المطلق ، رد ابن عربي.

قال ابن خفاجة محاولا استغلال هذه الحيرة :

- أرأيتم غوايتكم أيها الأشياخ ، قد تُوشِكُ أن تُهْلِكَكُم.

وبعد أقلَّ من لمح البصر قال ابن حزم :

- وأنتم أيها الشعراء ألا ترى أنكم في كل واد تهيمون وأنكم تقولون ما لا تفعلون؟ !

- وكَبُرَ مَقْتًا أن تقولوا ما لا تفعلون يا ابن خفاجة ، زاد الشيخ الأكبر!

ثم رجع الحديث إلى ابن حزم فقال :

- فقد بطل قياسك يا صاحبي الذي قِسْتَهُ آنفا ، فإنه إذا ورد الأثر بَطَلَ النظر.

كان ابن خفاجة يرمي الأشياخ بنظرة عَتَبٍ أو غضب ، لم يتبين ذلك فالظلام قد اشتد ولم يعد وهج النار كافيا لأن يظهر ملامح الجلساء ، أصواتهم فقط كانت تدل على وجودهم وأماكن جلوسهم ..

إنما كان يرى الشابُّ بقلبه ..

كان ابنُ حزم أَشْقَرَ في حُمْرةٍ، معتدلَ الطُّول رَبْعةً مِن الرجال، أنيقَ الملبس، عَطِرَ الرائحة، إذ كان لا يقتني إلا أجود الأنواع من دكاكين العطارين في قرطبة، كان يحب أن يبدو في أحسن منظر وأطيب رائحة لجلسائه في المسجد أو في أروقة قصور الوزارة، أو حتى في الأماكن العامة كالحدائق التي كانت تعرف انتشارا كبيرا عن الأندلسيين لِشِدَّة اعتنائهم بالأزهار والورود والأشجار، أما ابن عربي فقد كان أشقر كذلك لكنه أقلَّ حمرة من صاحبه، أما ابن خفاجة فهو أشقر أيضا ... كانوا مثل أنجُم أضاءت حيرة الشاب وأنارت عليه ظلمة الغار الأعزل، كأن ابن عربي أنيق الملبس كذلك رغم زهده، وقد قال لهم في النساء قولا عجيبا لا يزال يتردد صداه في ذهن الشاب المحتجز ...

أي شيخ أنت يا ابن عربي وقد قلتَ لنا ما قلت في النساء؟

أي زاهد ينطوي عليه صدرك وروحك ميالة إلى أَلَقِ الشكل المؤنث؟

أي زُهْدٍ وأنت طَرِبٌ بالكلام ثَمِلٌ بالصمت؟

أم لعلنا لا نفهم حقيقة الزهد ونحسبه خمول الجسد في انطفاء الروح؟

هلا علمتنا فنتعلم؟

كان المحتجز يفكر ولا يهدأ تفكيره كمياه الشلال المنحدرة

إلى المَصِّب المتباعد، لم تكن تلك المياه تصل إلى مَصَبّ قريب ولا بعيد، بل تظل متهاوية كأنما تنزل من قبة الفلك الأعظم إلى الأرض السفلى، أما تلك الأنجم المضيئة في بحر الكون فلم تكن إلا وَمَضاتٍ خافتةً وسريعةً لأجوبةٍ حاسمة تُروي الغليل أو تَشفي العليل ..

وفي خضم الفكر المتلاطم، قال ابن عربي:

أتحسب أنك جِرْمٌ ضعيف ❖ وفيكَ انطوى العالم الأكبر!

- بالله عليك أيها الشيخ الأكبر، هل لهذا العالم من منتهى؟

- وهل تتذكر البداية حتى تسأل عن المنتهى؟ إن الروح هو العاقل ونحن لا ندري أين كانت أرواحنا قبل أن تُنفخ في أجسادنا.

قال الشاب وقد زادتْهُ أجوبة الشيخ ضَياعًا:

- وهذا الذي لا يدري منك أهو الروح أم شيء آخر؟! فإن كان الروح فلا بد أنه العاقل الذي يعلم ماضِيَهُ كما يعلم حاضرَهُ، وإن كان شيئا آخر فإنها غواية الذات وما أظنها إلا أكبر من غواية الألفاظ!!

قال ابن خفاجة منتهزا غواية الأشياخ:

- قد ضَلَّ سَعْيُكم، وتجاوزتم غواية الشعراء إذ قال صاحبنا ابن زهر الإشبيلي:

وبكى بعضي على بعضي معي

فتلفت الجلساء بعضهم إلى بعض كهذه الحيرة الخالدة التي تركها ابنُ زُهْـر في مُوَشَّحَتِهِ، يبدو أن لا جواب لأحد على سؤال صاحبه، كانوا يفزعون إلى رمي السؤال في عتمة الغموض حتى يتلاشى خطره ويزول العجب منه ..

أهكذا تتلاعب اللغة بالفكر؟

أهكذا تخلصتم من مُناكفات الخصوم طيلة هذا التاريخ المزدحم بالمناظرات؟

لقد تراكمت السؤالات فوق بيوتكم وتوشك أن تهدمها من شدة الثقل يا سادة ..

قال ابن حزم:

- السؤال الفاسد لا يقبل إجابة، لأنه موضوع وضعا خاطئا، فلو قال لك أحدهم: لماذا تشرب الخمر، فكيف ستجيبه؟ إنك لن تُعطِيَهُ سَبَبًا لشُربِكَ الخمر لأنك أصلا لا تشربها، بل ستنقُضُ له سؤاله من الأساس حتى يَسْحَبَه، فلو تعلمنا الفرق بين الأسئلة الصحيحة والأسئلة الفاسدة لاستغنينا عن كثير من الجدال الفارغ والنقاش العقيم!

ظهر الانبهار مجددا على وجه الشاب وانفتحت عيناه الزرقاوان أكثر متذكِّرًا تعاسة صاحبه المراهق، ثم واصل ابن حزم حديثه فقال:

- غالب أحاديث الناس لَغْوٌ، ونحن إذا سكتنا عن

هذا اللغو لهدأ الكون من ضجيجنا ولاستمعْنا حينها إلى موسيقى الأفلاك.

- ضجيج النسوة يا مولانا -وقد تذكر المرأتين المُلْتَحِفَتَيْن قبل ظهيرة اليوم في حافلة النقل العمومي- أما الرجال فلاَ يتكلمون كثيرا .. ثم ما عنيتَ بموسيقى الأفلاك؟!

رد ابن حزم سريعا :

- لا تَضِجُّ النسوة إلا لإسماع الرجال وإغوائهم، وإلا فإن ثرثرة الرجال لا تنتهي.

تبسم ابن عربي لقول ابن حزم وأضاف :

- موسيقى الأفلاك، أصوات الكواكب التي ستملأ قلبَك بعد أن نسكُتَ يا بُنيَّ، أما ضجيج الرجال فهذه الكُتُب المخطوطة؛ ألا ترى إنما ألَّفها رجالٌ لا يتوقفون عن الكلام!

- وهل طَوَّلَ أسانيد الحديث إلا رجالٌ تفاخُرًا بالعنعنات واستكثارًا بالأشياخ؟!

هكذا رد ابن حزم وهو يتحسر ويفرك أصابعه ثم يرفع نظره إلى خارج الغار كأنه يتلمح شيئا بين تلك النيران المتوهجة ثم يعيد نظره إلى الأرض، فقال ابن عربي عند ذلك :

- كم تأذى الشيخ من فقهاء قرطبة يا مولانا! آه كم تأذَّى منهم!

أجابه ابن حزم وهو يذرف الدمعة اليتيمة على خَدِّهِ :

- لقد ارتحل عن الأندلس شابًّا وقضى زهرة عمره في

الاغتراب، ثم رجع إلى وِطنه ليجد الفقهاء له بالمرصاد، ويقول مَن تولَّى كِبْرَها «لأَنْ يوضع في تابوتي رأسُ خنزير خيرٌ من أن يوضع فيه كتاب صاحبكم هذا»!!

- أصبغ بن خليل المالكي يا مولانا .. نبَّهَ ابنُ عربي.

- أجل ... غفر الله له!

- وكيف يقول ذلك ولم يفعل صاحب المسند إلا ما فعل إمامهم الأعظم؟!

- كان الفقهاء يتكسَّبون بمذهب مالك وينالون به المناصب والجاه عند الأمراء، لذا لم يَرْضَوا أن يزاحمهم أحد في نيل المشيخة وتَقَلُّدِ أعمال الفتوى والقضاء والإمامة، عَضُّوا أناملهم من الغيظ حين رأوا العامة وطلبة العلم يزدحمون في حِلَق السَّماع، وخافوا بعد ذلك أن يفقدوا مكانتهم بين الناس، فعكفوا على محاربته وتحذير الناس منه وتخويف الأمير محمد بن عبد الرحمن من كُتُبِهِ، ولولا أن حَكّمَ الأمير عقله لكان سجنه أو قتله، لكنه استدعاه إلى مجلس الحُكْم وطلب منه أن يُرِيَهُ مؤلفاتِه، فوضعها بين يديه وتصفحها الأَمير وكان الفقهاء قد حضروا ذلك المجلس وهم ينتظرون أن يوافق الأمير على رأيهم ويستجيبَ لتعصبهم، لكن السلطان اهتدى بحكمته إلى خبث مقاصدهم ووجد أن صاحب «المسند» بريء من التُّهَم، وأنه في كتابِهُ زاخِرٌ بالعلم موفورُ الحُجّة سليم القصد، فأمره أن ينشر كتابه،

ونهى الفقهاء من التعرض له مجددا.

قال ابن عربي:

- لكن الناس ظلوا متخوفين منه حتى نبلاء طلبة العلم في قرطبة تحاشوا مجالسته، أما أنا يا مولانا فوالله -رغم تطاوُلِ المُدَد- لأشتاق إلى لقائه وسماع حديثه.

- إنه قادمٌ لا محالةَ .. بالغُديَّاناتِ نلاقِيهِ .. ردَّ ذو الهيبة.

كانت نسماتٌ أكثرُ برودة قد بدأت تداعب جلساء الغار وتزيل عنهم الملل بعد ذهاب هزيع من الليل .. غفا الشاب المحتجز بعد أن أرهقه تعبُ الانتظار، لم يكن هنالك أحد غيرُه في امتداد هذه البادية المظلمة، فقط بعض الخفافيش ودندنات البوم الذي يعشق هيبة الليل وظلمة الأرجاء حتى يَتْلُوَ آياتِه في الآفاق، كان اللبن قد هبط إلى قاع الكوب وبقِي الماء فوقه، ازداد خبز الكسرة يبوسةً، ثم طاف طائف بالنائم وسط الغار فارتعدت منه فرائصه وأفزعه بِهَيبته، فناداه بصوت بين الدهشة والخفوت:

- بالله عليك من أنت أيها الزائري بالغُدَيَّاناتِ؟ وما هذا الصوت الرهيب الذي يَصْحَبُك؟ هلا فَكَكتَ عني قيودي؟!

وبِصوتٍ أقربَ إلى الإفصاح من الفصاحة رد الطائف:

- لا يَفُكُّ قيودَك سِواك!

- كيف وأنا عاجز عن الحركة والفعل؟

- ستفُكُّ قيودَك إذا أردتَّ ... سَتَنْفَكُّ حين تريد !

- من أنتَ بالله يا زائري ؟ فكأني سمعتُ مثل هذا الكلام آنِفًا.

- قد أوصلك إليَّ من أسمعك مثل هذا الكلام ، فاستعدَّ لترويَ أحاديثي !

قال المحتجز وهو يتحسَّر على نفسه :

- وهل تراني أهلا لتحمل الأمانة يا سيدي ، وقد حُمِّلَها غيري قَبْلًا فضيَّعها.

- ضيَّعها إذْ كان ظلوما جهولا ، فلا تكن مثله .. فِرَّ من الظُّلم إلى العدالة ، ومن الجهل إلى العلم ، ولن تصل تخوم العدالة والعلم إلا بالفرار !

- ما أحسن قولَك أيُّها الهاتف مِن بعد والطائف عن كَثَب ، فهلا عرفتني بك !

قال زائره و كأنه يَهُمُّ بالجلوس :

- من ذا الذي فَزِعَ بك في الليل البارد فأفزعك ، من ذا أرغمك على ركوب المَكارهِ وقد كنتَ متدثرا في فراش الصباوة ، من ذا تلألأ مثل كوكب دُرِّيّ في سمائك المظلمة ، من ذا هيَّأ لك المراكب في زمهرير الفجر تاركا هواك وقاصدا إلى حيث لا تهوى وقد تَهْوِي ، حَبَّب إليك ما كنت تكره ، وأغواك بمجالس العلم ، وجعلك تغرق في مَتاهات الأوراق ، لِتميلَ عن حُبِّكَ الصغير إلى الشَّغَف الكبير ، ثم طاف بك بين

أَزِقَّة المدينة ، وهمس لك أن عهدها الذي خِلْتَـهُ غابرًا ما غَبَرَ ما دامت روحه تسعى بين أحيائها العتيقة ، فطال بك الشوق وحدا بك حـادي الأرواح إلى صوتي المجهـول رغم ما بينك وبينـه مـن الأميـال المتباعـدة ، وأخـذتَ عهـدا مـن صاحبتك أنهـا ستُريك تباريحي علـى تخوم الصحـراء ، فإذا بالصحراء تحاصرك وإذا بـي أرميك خلـف قضبان الظَّلَمة حتـى أُمَحِّصَ قلبـك وأجعلـه قويًّـا علـى المحبـة ومواصلـة الطريـق ، وكـادت الأوراق الباليـة أن تتطايـر فـوق أحـلام العثمانيـة ، ثـم عفـا عنكمـا زبانيـةُ السِّجْن ، ليصل بِكُمَا السبيل إلى رواق جامع النخلـة وتُلْفِيَا صاحبهـا عند الباب ...

كان المحتجـز يتقلـب في أفـكاره علـى ضفـاف الحقيقـة ، فـتراءى لـه إمـام المسـجد قبـل سـنواتٍ قائـلا :

- على الرَّحب والسَّعة ، لعل الرحلة كانت مُتْعَبَة؟

رَدَّتْ صاحبتُه :

- وأيُّ تَعَبٍ يا سيدي ، الجمال يكتنفنا مِن كل جانبٍ في هذه البلدة السعيدة ونحن بين يدي الهدية الكبرى.

كان الـرِّواق يَضُـمُّ هـواءً باردًا ولطيفا للغاية ، أما السَّـقف فـكان مصنوعـا من الأعمدة الخشـبية الموثقـة بالعُقَدِ ، كذلك كان سَقْفُ قاعة الصلاة ، وبجوار المسجد كانت تلك النخلة القديـمة الـتي تحكـي مر السـنين ، بينما يحكـي جارُهـا المُقَدَّسُ مَـرَّ القـرون منـذ أن خـطَّ أساسَـهُ ذلـك الـذي تفتخـر بـه آسـيا

قرمزلي !

أما رفيقها الصغير فكان يتأمل بعينه الزرقاوين نواحيَ المسجد ، ذاك الطِّلاء الأبيض الذي زُيِّنت به جدران الرِّواق ، وذاك الخشب القاتم الذي يحمي بمتانته رؤوس العُبَّاد من حِّر المَصايف وقَرِّ المَشاتي ، وذلك الهواء النقي البارد والمختلط بألَق النور الذي يتعالى عن الزمن ويأسر الأرواح إلى شاطئ الأمجاد ، كان الإمام قد رحب بهم ثم اِصْطَحَبَهم لداخل حجرة الصلاة .. الوقت بعد العصر ، وليس هناك أحد إلا ذلك الشيخ المنكفئ على نفسه كأنه تسلل من نافذة التاريخ ، ليطمئن على الإرث هل حفظه الأبناء أم ضَيَّعوه؟

قالت آسيا :

- عِمْتَ مساءً أيها السيد الكريم.

- إنه لا يسمعك يا سيدتي ، فهو شيخ هرم لا يكاد يعرف ما حوله ، قال الإمام.

- سمعني قلبُه لا أُذُنُهُ أيها الإمام ..

ثم توجهتْ آسيا بالحديث إلى الشيخ فقالت وهي تجلس بهدوء قربه :

- ما ضيَّعْنا الأمانة يا سيدي ، الفَرَماناتُ التي تحوي حقوق الناس محفوظة ، وخزائن الباشماط مليئة ، والجند على أهبة الاستعداد ، لا يزال صدى نداء خير الدين باشا يتردد في صدورنا.

ثم انطلق الصوت الأجش وكأنه لم يكن يُصْغِي إليه أحدٌ إلا الكُرْغُلِيَّة :

- هذا الكتاب الذي جئتِ من أجله قد حُفِظ بحفظ هذا المسجد، فإنها توأمان لا يفترقان، فإن ضُيِّع الكتاب هُدِم المسجد ...

- وهل يُهدم المسجد إلا إذا سَقَيْنا الراية الحمراء؟

كانت حجرة الصلاة خالية إلا من الثلاثة، شَيْخٌ هَرِمٌ متشبث بالحياة، وامرأة قد امتلأت جمالا باذخا مع رفيقها الصغير سفيان الذي يمشي معها كل خطوة بصدق، تلفَّتتْ آسيا فإذا بها لم تجد مُضيفَها الإمام القاسمي، فقالت خائفةً :

- بالله عليك يا صديقي أين ذهب إمام المسجد؟ انظر لعلك تجده في المقصورة أوفي ذلك المدخل الآخر ...

لم يكن هناك أحد غيرهم، المقصورة مغلقة بإحكام، القاعة الثانية كانت تحتوي على مكتبة .. أسرع كلاهما للبحث فيها لعلهما يجدان أثرا للإمام أو ربما قد ترك لهما المخطوطة ومضى لشأنه ويعود لاحقا، شرع الصديقان في البحث وبدءا يقلبان صفحات الكتب الصغيرة والكبيرة، كل الكتب مطبوعة حديثا على ما يبدو، واصلا البحث ..

- هل هناك يا ترى فهرس مكمل لما تحتويه المكتبة؟

وتذكرت آسيا حينها العمل الفريد الذي أنجزه شيخ الزاوية القاسمية والذي قَيَّدَ من خلاله عناوين المخطوطات

الضائعة أو المفقودة في مكتبة الزاوية بمدينة الهامل، راح سفيان يفتح الأبواب السُّفْلِيّة للمكتبة، كانت شبهَ خالية إلا من مَصاحفَ قديمة وأوراق ممزقة ورائحة الحطب القديمة وقليل من التاريخ ... مدَّ يده إلى تلك الإضبارة المحكومة من الأوراق البالية التي يعلوها الغبار، ثم أمسكها بيده وهو يتأمل الخط القديمِ الذي كُتِبتْ به ... ارتسمت على شفاهه ابتسامة صغيرة و أَلَقُ دمعة من عين المحبة.

انتبهت آسيا لرفيقها في اندهاش وبعض الارتعاش:

- أفندم!

- أهو ذلك الكنز المفقود؟

- بالله عليك ماذا تقول؟

وهرولت إليه ثم أخذت الإضبارة ويداها ترتجفان وفي عينيها كثير من الدموع التي لم تكد تسقط .. ضمَّتْها إلى صدرها ثم ردتها أمامها وراحت تقرأ وكأنها تتغنى بجمال الأحرف الأندلسية ..

جُزءان نادران لمسند الشيخ الإمام .. أحدهما 199 ورقة والثاني 276 ورقة ..

ثم ترفع عينها إلى سفيان وكأنها تحاول أن تعانقه عناقا طويلا، لكنها قالت بدل ذلك:

- أتعلم أيها الرفيق كيف يمكن أن توصف لحظة الحب، أو كيف لنا أن نصف دهشة اللقاء الأول؟ أتعلم ما يعني كل

هذا؟

كان سفيان قد غامرته مشاعر التحدي ونشوة الفوز وهو يصغي إلى رفيقته :

- إنها بركة الصداقة وآثار الصدق ، أعلم أنه لا يمكن تحمل الأمانة إلا من قلب صادق متبرئ من شهوات المال والشهرة ، ستكون هذه الجوهرة أمانة عندك لا يراها أحد غيرك ، فإذا ظفرتَ بمن يرعاها حق رعايتها فأخلص له النصح على أن يخرجها للناس وافية كما هي لا يزيد ولا ينقص ، ولا يدعي ما ليس له كما يفعل سَرَقة التراث ، فبالله عليك كما تفرَّستُ فيك الأمانة لا تخذلني ... فأنا سأمضي إلى حيث يمضي الشيخ.

وبينما هي تحادث رفيقها ممسكة بالإضبارة بين يديها قريبا من صدرها ، إذ دخل عليها إمام المسجد رفقة شابة منتقبة وهما يتضاحكان على ما يبدو ، لم يفهم أي من الرفيقين من أين جاءت تلك الفتاة ولماذا أتى بها إمام الجامع في وقت كهذا :

- من دون شك أنك لا تعرفين هذه الشابة سيدة آسيا !

فألمحتْ آسيا بالتأكيد مع ابتسامة قصيرة في بحر من الملامح الغامضة والاستفهامات وتضجُّر باهتٍ من كلمة «سيدة» ، لذا واصل الشيخ عبد الحفيظ إمام المسجد قائلا :

- إنها فتاة سورية ...

- لاجئة هي ، عفوا ضيفة عندك؟ قاطعته آسيا ، فعقب عليها :

- بل هي صاحبة البيت يا سيدتي ، ولكن قبل أن أخبرك من هي أود أن أُوَضِّحَ أمرا مُهِمًّا حتى لا تنزعج رفيقتُنا هذه ... إخواننا السوريون الذين يأتون هنا تاركين منازلهم وأهاليهم لم يأتوا إلا لإعادة بناء حياتهم مرة أخرى في مكان آخر ، فالأرض لمن يبنيها والوطن لمن يخدمه ، فإذا لم يتوفق الإنسان لذلك في بلد ما فلا بد أن يرحل ليستأنف العمل في بلد آخر وحيثما حَلَّ عَمِل ، ألا يقول السادة : «أين زرعك الله أَنْبِتْ»؟ على كل حالٍ ؛ هذه الآنسة جمانة الأسدي من دمشق ، طالبة تاريخ مثلك يا آسيا -كانت آسيا قد انفرجتْ أساريرها وانبسطتْ بعد أن قدمتْ اعتذارا بحركات عيونها لِمَا بدا منها من حِدَّةُ تُجاهَ صاحبةِ النقاب- وكان لها الفضل الكبير في الحفاظ على هذه النسخة التي بين يديك من السرقة !

- ما تقول أيها الشيخ؟ بصوت مليء بالدهشة والإعجاب قال سفيان.

- أجل يا بني ، فصديقتنا جمانة قد كشفت عن خطة لأحد السُّوَّاح الأمريكيين الذين دخلوا الجزائر خلال هذين اليومين ، حيث كان قادما من تركيا عبر عميل له يدعى ..

- طاهر إحسان أوكر وغلو ... قالت جمانة بلهجة شامية.

حين سمعت آسيا هذا الاسم سُقِطَ في يديها ، وأحسَّتْ

أن الأرض تدور من حولها ، لكنها شرعتْ في ربط الأحداث بين ما كانت تتوجسه من صديقها التركي ، وبين ما سمعتْه في قسم الشرطة من اعتقال رجل أمريكي متهم بقتل مواطن جزائري ، ومحاولة نهب أجزاء من التراث القومي ، لم يكن ذلك مصادفة حين قارنتْهُ بما يقوله الإمام الذي واصل حديثه :

- فقد تلقَّى الأمريكيُّ معلوماتٍ شِبْهَ دقيقة عن مكان تواجد هذا المخطوط القيم ، ونحن لا ندري وكيف تحصل التركي هذا الذي اسمه ...

- أوكروغلو ... طاهر إحسان أوكروغلو الذي كشف للأمريكي عن مكان وجود المخطوط .. قالت جمانة.

- آه نَعَمْ ، وبكل الأحوال .. ومن حُسْنِ حظ الآنسة جمانة التي تتبعت أستاذها الأمريكي من سوريا إلى تركيا ووصولا إلى الجزائر ؛ بعد أن جمعتْ عدة معلومات عنه عبر مراسلات البريد الإلكتروني ، فقد غامرت للمجيء إلى هنا وإبلاغ الأمن الجزائري وتقديم كافة المعلومات التي بحوزتها عن هذا المجرم الأمريكي حتى تم القبض عليه ...

قامت آسيا بعد أن وضعت المخطوط عند سفيان ، وعانقت جمانة عناقا مطولا مليئا بمشاعر الإعجاب والمحبة ، وقبَّلتْها ألف قُبلةٍ حتى ذَرَفَتَا دموع المرحمة.

ظل سفيان يُقَلِّب نظره بين الإضبارة وفي نواحي المسجد

العتيق ، ثم رفع رأسه إلى حيث الإمام واقِفًا متبسما ، وحيث لا يزال عناق المرأتين .. وهو يتذكر بعض ما كان يقوله صديقة في العاصمة «يجب أن نفعل أي شيء ولو صغيرا في بناء الحضارة» ، كان هذا المشهد قد محا عن قلبه كل علائق الوهن ، كأنما أَرْواهُ ماءً بارِدًا في قيظ الجهالة.

استأذنتْ آسيا منهم وراغتْ إلى قاعة الصلاة حيث كان الشيخ الهَرِمُ ، وبعد حِينٍ وضع سفيان الإضبارةَ بِعِنْاية تامة في كيس متين ، ثم خرجَ ليرافق آسيا .. لكنه بعد لأْيٍ رافق نفسه وتلك المخطوطة ..

أين أنت أيتها العثمانية ؟ !



هدأت نغمة الكون التي صحبتْ الطائف بالسَّحَر ، وانطفأت نيران المعسكر المنتشرة على جَنَبات جبل المُكتسي ، إنما كانت تضيء من ضياء ذلك الطائف ..

تلمَّسَ الشابُّ المُحتجَز حواليْه فلم يجد زائره الأخير ..

13

غواية العثمانية

قبلة العودة

بدأت أسراب الطيور الناعقة تجوب أنحاء السماء، كان ضياء الفجر قد انبجس على امتداد هذه البادية المُقْفِرة، وكأن الغربان لم تَمَلَّ من مواصلة أهازيجها المُرْعِبة ..

أغاني الموت ..

رقصات ما قبل الفناء ..

ثم الانقضاض على الجثث المترامية بين سفوح جبل المُكْتَسِي، استيقظَ المُحْتَجَزُ وفي عينيه الزمن الأول للحياة وفي ملامحه جفاف اليأس المكتسح ...

أين أنا؟

ماذا يريدون مني؟

أَأشْقَى من صائم دون نية؟

أَأَضَلُّ من مُعْتَكِفٍ دون قَصد؟

آهٍ، أيها الجبل ألا تقصيني، ألا تَنفيني، ألا تبعدني عنك، ألا تمل من جليسك الثقيل هذا؟ ألا تهتزُّ هَزَّةَ الغَضَب فأغورَ في شعابك دون رجعة؟

ألا تحنو علي حُنُوَّ المرضعات على الفطيم؟
أم أنهم حكموا عليَّ بالإعدام، سيقتلونني؟
وبِدَم بارد يرمون بجُثَّتي إلى الطيور اللعينة كي تمزقني كلَّ مُمَزَّق؟
أيًها الفجر ألا تبشرني بالفَرَج؟
ألن تلعب معي غواية الألفاظ لتتراقص حروفك وتُفْرِجَ عني أيها الفجر؟
دنا منه الرجل الذي لم يكن يراه، وأمسكَ بِتلابيب صدره وقال:
- أظن هذا الوقت الذي تقضيه هنا كافٍ لأن تُلَبِّيَ لنا طلبا واحدًا.
- من أنتَ؟ ولماذا أنا هنا؟ رد المحتجز بصوت أبحَّ.
- الأمانة التي في مكتبتك يجب أن تكون بحوزتنا.



- يا رجل ألا تردُّ على الهاتف ... إنه يَرِنُّ منذ ساعة!
- من يا ترى يتصل بي في هذا الساعة المبكرة ... كان عليكِ أن تبعدي عني الهاتف ... أحتاج مزيدا من النومِ يا حبيبتي، تأخرتُ كثيرًا أمسِ عن البيت ... هل استيقظ خزيمة؟

- خزيمة .. خزيمة لا ينتظر الكسالى ... استيقظ وشرب حليبه وأمسك بقلمه ليخربش به على الأوراق كعادته ... أظنه سيخرج شاعرا مثلك !

- ألا تعلمين يا زوجتي العزيزة الغالية ، أنتِ كلُّ ما أملك في هذه الدنيا ، حتى إزعاجك الصباحي هذا هو بمثابة فنجان قهوة ... أما خزيمة فهو ثمرة محبتنا طيلة هذه السنوات ، أما الكتب التي في مكتبتي فهي حبيبتي الثانية ، ما رأيك؟

- الكتب؟ ! -بصوت فيه غَضَبٌ وتعجب- وما ذكَّرك بها في هذا الصباح؟ أم أنك قضيتَ سهرتك داخل المكتبة أمسِ وأنت أصلا لم تخبرني أين كنتَ؟ لا أظنك قد خرجتَ في نَزهةٍ في ذلك اليوم القائظ ..

- لا تقلقي .. فقط يجب عليَّ إعادة جَرْدِ الكُتُبِ في أقرب وقت ، وسأعتني خصوصا بالمخطوطة التي تُرِكَتْ عندي أمانةً ، إنها أثمن شيء عندي !

- تبا لك يا زوجي ... هذه المخطوطات والكُتُبُ أَشَدُّ عليَّ من الضرائر !

ضحك سفيان ، ثم قال :

- سأشرب حليبي لأتصل بعزيز ، أظنه يطلب مني لقاءً مُهِمًّا مع أستاذة باحثة في التراث هنا في الجامعة .. لا أدري لماذا بالضبط ... جَهِّزي لي الحليب يا زهرتي !

- الحليب جاهز ، وسأكون جاهزة أيضا لحضور هذا

اللقاء مع هذه الباحثة ! ! لن أدعك وحدك أيها المسكين !
- آه ، آه .. الغِيرةُ صباحًا .. «الغيرةُ صباحًا» يا لها من عبارة تصلح عنوان حكايةٍ ما .. لكني سأخبرك ما حدث لي بالأمس .. لا تقلقي .. نجوتُ بأعجوبة .. لن يُهدَم المسجد !
أين خزيمة أريد أن أُقَبِّلَهُ ، وأنتِ .. خذي قبلتين !



انتهت

فهرس